نظام الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب: التحديات والفرص

إعداد

د. هاني جرجس عياد

كلية الآداب – جامعة طنطا

مجلة رعاية وتنمية الطفولة (دورية – علمية – متخصصة – محكمة)

يصدرها مركز رعاية وتنمية الطفولة – جامعة المنصورة

العدد الخامس عشر- ٢٠١٧ م

نظام الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب: التحديات والفرص

The alternative family system in caring for children of unknown parentage: challenges and opportunities

إعداد
د. هاني جرجس عياد
كلية الآداب – جامعة طنطا

الملخص:

إن هذه الدراسة تهدف بوجه عام إلى إعطاء صورة شاملة عن نظام الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب، من حيث واقعه ومستقبله، وتسعى إلى الوقوف على نقاط القوة التي يمتاز بها نظام الأسر البديلة وتزكيتها ونقاط الضعف التي تحول دون تأدية عمل هذا النظام والعمل على معالجتها، وقد استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج العلمي، واستعان بالأسلوب الوصفي التحليلي، والملاحظات والمقابلات غير المقننة واستمارة الاستبيان كأدوات لجمع البيانات. وقد توصلت الدراسة الراهنة إلى أن نظام الأسر البديلة يمتاز بمزايا عدة لا تتوافر في نظم الرعاية السابقة للأطفال مجهولي النسب، ومع ما يوجد من مزايا فإنه قد يوجد بعض السلبيات لكنها تنغمر في بحر الإيجابيات المتوقعة منه. وبالموازنة بين سلبياته وإيجابياته نجد أننا قد نغض الطرف عن بعض سلبياته المتوقعة وليست المتحققة جراء ما ننتظره من إيجابيات عدة على الطفل والأسرة والمجتمع بشكل عام.

Abstract

The alternative family system in caring for children of unknown parentage: challenges and opportunities

Abstract

This study generally aims to give a comprehensive picture of the system of alternative families in caring for children of unknown proportions, in terms of its reality and future, and seeks to identify the strengths of the alternative family system and its zakat and the weaknesses that prevent the functioning of this system and work to address it In this study, the researcher used the scientific method, and he used the descriptive analytical method, unclassified notes and interviews and the questionnaire form as tools for collecting data. The current study has found that the alternative family system has several advantages that are not available in previous care systems for children of unknown proportions, and with what there are advantages, there may be some negatives, but they are overwhelmed by the expected positives. By balancing its negatives and positives, we find that we may turn a blind eye to some of its expected and not achieved negatives due to the many positives that we expect on the child, family and society in general.

The current study sought to give a comprehensive picture of the experience of alternative families in caring for children of unknown descent in Egypt, in terms of their reality and future. In this study, the researcher used the scientific method, and he used the descriptive analytical method, the unclassified notes and interviews directed to the interview guide and the questionnaire form as tools to collect data. The current study has found that the alternative family system

أولا: المدخل إلى الدراسة

ما من يوم يمر إلا ونسمع عن حالة هنا أو حالة هناك قد حملت سفاحا اغتصابا أو بالتراض، كما تتوالى الروايات عن مأساة العثور على أطفال حديثي الولادة مرمي بهم في الطرقات بلا رحمة أو شفقة، وبلا أي ذنب اقترفوه.

تعد ظاهرة الأطفال مجهولي النسب واحدة من القضايا الاجتماعية غير المطروحة للنقاش بالشكل الكافي رغم أهميتها. إن الأطفال مجهولي النسب هم الأطفال الذين تم العثور عليهم دون أب أو أم بيولوجيين. ولذلك تطلق عليهم تسمية مجهولي النسب، وربما تسميات أخرى، مثل: الأطفال غير الشرعيين أو اللقطاء. فمجهول النسب يطلق على كل طفل ضل أو طرحه أهله خوفا من العيلة أو فرارا من تهمة الزنا، فلا يعرف نسبه.

إن الأطفال مجهولي النسب تتزايد أعدادهم بشكل مقلق في مصر، ولا توجد إحصائية رسمية دقيقة لهم، وبحسب تصريحات مسئولو وزارة التضامن الاجتماعي تقدر أعدادهم بمراكز الإيواء التابعة لها ولدى الأسر البديلة ب(١٢.٣٣٦) ألف طفل، فيما بلغ عدد قضايا إثبات النسب المنظورة في المحاكم (١٥) ألف قضية، علاوة على ذلك يوجد أطفال مجهولي النسب ضمن أطفال الشوارع وغير مثبتون لدى الدولة ليقدرهم المركز القومي للأمومة والطفولة جميعا ب(٢) مليون طفل تقريبا (حمدي، ٢٠١٩/١/٨).

ويعتبر الحصول على إحصائيات دقيقة لهذا النموذج من الأطفال أمر بالغ الصعوبة، وهذا قد يكون راجعا لعدة أسباب منها:

- **التكتم الشديد من قبل الدوائر الرسمية في مصر على إخراج الإحصائيات للعلن، ومردها في ذلك قد يكون بسبب الأعراف العربية والإسلامية، أو محاولة منها لتحجيم الظاهرة أملا في الستر، أو حفاظا على الصورة الأخلاقية العامة للدولة.**
- **أن الأطفال مجهولي النسب يدونون في الوثائق الرسمية سواء في الشرطة، أو في مؤسسات الإيواء ورعاية الأيتام على أنهم أطفال أيتام، ومن ثم تذوب أرقام اللقطاء داخل إحصائيات الأيتام فيصعب التحييد.**

لا يمكننا تعميم سبب واحد لتخلي الأب والأم عن الطفل حيث تتداخل العوامل وقد تتقاطع. في معظم الحالات يكون الحمل خارج إطار الزواج. وفي ظل تجريم الإجهاض في المواد (٢٦٠ – ٢٦٣) من قانون العقوبات المصري (الشاذلي، ٢٠٠٢: ١٢٢)، قد لا تتمكن بعض النساء من الإجهاض في الأسابيع التسعة الأولى من الحمل لعدة أسباب، منها: الخوف من الإبلاغ، أو عدم توافر المال لإجراء عملية جراحية قبل تكوين الجنين، أو لضعف إمكانية الوصول لطرق الإجهاض الأخرى، أو التأخر في اكتشاف الحمل. وفي حالات أخرى، يكون الحمل نتاجا للزواج، وقد لا تملك الأسرة رفاهية الاحتفاظ بالطفل، أو لا ترغب في وجوده.

وتكون عملية التخلص من الطفل صعبة وتسند إلى الأم في أغلب الحالات، لأن الإنجاب مرتبط بالدور الاجتماعي للأم. فإذا كان الطفل ثمرة علاقة جنسية في غير إطار الزواج، فقد يتهرب الأب البيولوجي للطفل من المسؤولية، ويختفي من المشهد، وقد يتبع ذلك استكمال الأم للحمل بسبب صعوبة الوصول للإجهاض الآمن، ثم تتخلى عن الطفل بعد الولادة. وقد يترك الطفل في المستشفى، وتغادر الأم بدونه. وقد تأخذه وتتركه في أحد الأماكن العامة، وقد تحاول قتله، في أكثر الحالات عنفا. وفي أحيان كثيرة، قد تحاول الأم قتل الطفل للأسباب السابقة، مضافا إليها حالتها النفسية واكتئاب ما بعد الولادة. وهذا ما يتسبب برفض الأم للطفل، خاصة إن كان الحمل ذا بعد درامي أو متعلقا بصدمة ما، كأن يكون الحمل ناتجا عن علاقة عاطفية مدمرة أو اغتصاب أو عن علاقة جنسية مع أحد أفراد أسرتها. وفي حال وجود الأب، فمن الأرجح أن يقوم بدور الإشراف على عملية التخلص من الطفل كاستراتيجية يضمن بها عدم ابتزازه به مستقبلا، أو لاعتقاده أن الأم لن تقدر على التخلص من الطفل بنفسها. أما في حالة الزواج، فقد تدفع الأب للتخلص من الطفل أسباب عدة، منها: أن يكون الطفل عبئا ماديا على الأسرة، أو الغضب من جنس الجنين. وفي حالات أخرى، قد يتخلص الأب من الطفل بدافع الانتقام من الأم أو عقابها.

ويتم العثور على الأطفال مجهولي النسب في أماكن عامة كمطاعم الوجبات السريعة، والمستشفيات العامة، أو في صناديق القمامة العمومية، أحياء بشكل كامل أو ناجين من محاولات قتل متعمدة، أو مقتولين. وفي حالة العثور على طفل، يتم أولا إبلاغ قسم الشرطة التابع للحي أو المدينة التي تم العثور عليه فيها. ثم يجري إبلاغ وزارة التضامن الاجتماعي

التي يحضر عنها مندوب لاستلام الطفل من قسم الشرطة وإيداعه دور الرعاية الحكومية والتابعة لوزارة التضامن الاجتماعي. وهناك يتم تسجيله رسميا في سجلات الدولة، ويأخذ اسما عشوائيا مكونا من أربعة أسماء، لاستخراج شهادة الميلاد، وتكتب المنطقة التي عثر فيها على الطفل كمحل للميلاد. ويتم تعميم الإسلام كديانة موحدة لكل الأطفال المعثور عليهم. ويعتبر التسجيل الرسمي أهم خطوات تمكين الطفل من تلقي الرعاية الصحية مثل التطعيمات، أو رعاية طبية مخصصة للتعافي من أثار الشارع إذ أنه في بعض الحالات وجد الأطفال أحياء بعد محاولات التخلص منهم، أو قضم حيوانات الشارع لأطرافهم. وإذا جاء الطفل إلى دار الرعاية عقب ولادته بفترة طويلة، يتم تسنينه ووضع تاريخ ميلاد تقريبي، حتى يحصل على جميع التطعيمات في موعدها. ويذكر أنه في حال عثر على الطفل في إحدى القرى، فإنه يسلم إلى العمدة أو شيخ البلد الذي يسلمه إلى جهة الشرطة التابع لها. ولا تنتهي أزمة الأطفال بإيداعهم دور رعاية، لأن بعض هذه الدور يعامل الأطفال بشكل سيئ، قد يصل أحيانا إلى التعذيب، أو العنف الجنسي. وقد لا يتم العثور عليهم من الأساس، فيتحولون إلى أطفال بلا مأوى، أو يتم استغلالهم في التسول، أو في الجنس التجاري، أو في أيدي عصابات تجارة الأعضاء البشرية.

آلاف الأطفال، مهما اختلفت مسمياتهم، ما بين مجهولي النسب، واللقطاء، وضحايا التفكك الأسرى، وغيرهم، حرموا من أسرهم دون أي ذنب ارتكبوه، ومهما اختلفت أسباب الحرمان فإن النتيجة واحدة، وهى الوحدة وافتقاد الأمان النفسي الذى يوفره الأب والأم، لذلك حرصت وزارة التضامن الاجتماعي على الاهتمام بتعديل لوائح الأسر البديلة لتشجيع هذا الاتجاه وتوفير أسر لهؤلاء الأطفال، وفقا للتوجه العالمي الآن. وتهدف الوزارة من تشجيعها لنظام الأسر البديلة إلى الحد من وجود الأطفال داخل دور الرعاية، وتوفير بدائل مجتمعية لهم تمنحهم الأمن والاستقرار النفسي الذى ربما لا يجدونه في مؤسسات الرعاية، فضلا عن أوجه الرعاية الاقتصادية والاجتماعية الأخرى، وهى الحقوق التي ربما تنصل منها آباؤهم وأمهاتهم. وتؤكد وزارة التضامن أنه مهما توافرت كافة الخدمات في دور الأيتام فلن تكون مماثلة لطبيعة الأسرة، لذلك يتم العمل في الوقت الحالي على تقليص دور الأيتام من خلال تعويض نزلائها بأسر بديلة يتم اختيارهم وفقا لمعايير وضوابط معينة. وهكذا أصبح نظام

الأسر البديلة، الذى يشير الموقع الرسمي لوزارة التضامن إلى أنه ليس مستحدثا، وأن بداية اعتماد تطبيقه ترجع لعام ١٩٥٩، هو المسار الذى تعمل الوزارة حاليا على تفعيله بشكل كبير ليكون بديلا لدور الأيتام، وصولا إلى إغلاق جميع الدور بحلول ٢٠٢٥.

وتعد الأسرة البديلة من أهم الوسائل الاجتماعية لرعاية الطفل مجهول النسب، لأنها تعوضه عن أسرة أبويه، وتشبع حاجاته، وتغرس فيه القيم الناظمة لسلوكه. وما إلحاق الطفل مجهول النسب في دار الرعاية الاجتماعية، إلا إجراء مؤقت، لابد منه في حالة عدم تيسير الأسرة المناسبة لاحتضانه، ولا يستطيع أحد أن يزعم بأن دار الرعاية يمكنها أن تشبع حاجاته، وتطور خصائصه النمائية، في مقابل احتضانه من قبل أسرة بديلة. ومفهوم الأسرة الحاضنة أو البديلة هي «الأسرة التي تحتضن الطفل الفاقد للسند الأسري وتقوم بالواجبات العادية للأسرة الطبيعية من رعاية وتحقيق الاحتياجات الأساسية للطفل وتوفير الأمن النفسي والإشباع العاطفي، وإكسابه العادات والقيم الاجتماعية المثلى، ويكون لها الحق في الإشراف عليه كأبويه» (Jallinoja, 2012: 15 - 27). إن الأسرة الحاضنة أو البديلة هي التي تقوم بتربية الطفل المجهول والمحروم من الأبوين رغبة منها في الأجر والثواب من الله تعالى.

لقد أجريت دراسات نفسية ـ اجتماعية في مراكز متخصصة لرعاية من فقد أبواه، حيث قدم للأيتام كل ما يحتاجون إليه ماديا في حياتهم المعيشية من لباس وطعام وشراب ومستلزمات، وعلى الرغم من ذلك لم يكن نمو هؤلاء الأطفال سويا، فمعروف أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، لأن الحب مكون أساسي من مكونات نموه، وقد تبين أن الطفل لا يستطيع أن يجري التمييز بين ما سيصبح عليه هو، وما سيصبح عليه الآخر، إلا إذا قدم له شخص مميز مساندة التبلور الضرورية، وهذا الشخص عادة هي الأم، ولكن يمكن أن يكون أي شخص يظهر في الموقع نفسه، ولكن بوتيرة كافية، باعتباره شخصا يعتني ويشد العزم ويرضي ويحب (عرابي، ٢٠٠٤: ١٢٧). ويرى عالم النفس فالون Wallon أن العناية المادية مهما كانت كاملة لا تكفي لنمو الطفل، إذا لم تكن دلالة وشهادة على الحب (Tourrette & Guidetti, 1994: 10 - 11). ونستدل من ذلك على أن الأساس في التعامل مع اليتيم ذكرا كان أم أنثى هو إعطاؤه دفعة قوية من الحنان والحب، لكي يشعر بدفء الحياة الأسرية التي يمكن أن تقدم له السبل الصحيحة لاتزان صحته النفسية والاجتماعية

والبدنية، وحتى الأمراض يستطيع الفتى المتوازن نفسيا التغلب عليها بنسبة أكبر من الفاقد لتوازنه النفسي والتوافقي.

لا أحد ينكر أهمية مؤسسات الرعاية الاجتماعية الإيوائية لفاقدي الأبوين، إلا أن معظم نتائج الدراسات التي أجريت في مجتمعات مختلفة، والتي تناولت التنشئة الاجتماعية لتلك الفئة التي تعيش داخل مؤسسات إيوائية كشفت عن وجود قصور في إشباع بعض حاجاتهم، فحرمان الفرد من الإشباع النفسي والعاطفي المترتب على عدم وجوده في أسرة طبيعية، كما هو الواقع لمجهولي النسب الذين فقدوا آباءهم، يترتب عليه ظهور آثار سلبية على الصحة النفسية، وظهور مشكلات سلوكية في المراحل التالية من نموهم (البراق، ٢٠١١: ١٠٠ - ١٠١).إن اهتمامات مؤسسات الرعاية يرتكز على القيام بالإجراءات الروتينية وتقديم الخدمات التي تلبي الحاجات الأساسية للنزلاء وعدم اهتمامها بخصائصهم العمرية وخصائصهم النفسية، وافتقارها إلى خطة توضح للعاملين الأسس التربوية والنفسية الواجب اتباعها في التعامل معهم، وافتقارها كذلك إلى برامج تؤهلهم لمرحلة الشباب بعد خروجهم منها وأن عددا قليلا من تلك المؤسسات يدعم الأطفال أكاديميا ومهنيا (عيد، ٢٠١١: ٣٠١ - ٣٠٢). وبالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك العديد من المشكلات الأخرى التي تواجه دور الرعاية الاجتماعية في مصر، ومن أهمها: ضعف التمويل الخاص بالمؤسسات، ونقص الأماكن التي تسمح بتقديم خدمات كافية مما يجعل بعض المؤسسات تقدم خدمات الإقامة فقط مما يترتب عليه حرمان هؤلاء الأطفال من خدمات التعليم والصحة والتدريب المهني وممارسة الأنشطة المختلفة.

وأشارت نتائج الدراسات التي ذكرها إسماعيل (١٩٨٦)، بأن معدلات النمو الحركي، واللغوي، والمعرفي، والذكاء العام لدى الأطفال، الذين يعيشون في مؤسسات الرعاية الاجتماعية، أقل بكثير من أقرانهم العاديين، الذين يعيشون في كنف أسرهم الطبيعية (ص ١٥٨)، كما أبانت نتائج الدراسة المقارنة، التي أجراها فارب Farb، على مجموعتين من الأطفال (مجموعة من أطفال المؤسسات، ومجموعة أخرى من أطفال الأسر العادية) تتشابها في جميع خصائصهما النفسية والاجتماعية باستثناء خاصية نمط الرعاية الأسرية، أن معدلات السلبية، واللامبالاة، والتشاؤم، والقلق، والانعزال، وقلة الشعور بالأمن والتكيف

المدرسي والمشاركة الاجتماعية، وضعف الكلام والتركيز والإبداع والدفاعية لدى مجموعة أطفال المؤسسات أكثر من أقرانهم أعضاء مجموعة أطفال الأسر العادية (خليفة، ٢٠٠٩: ١٢٢ - ١٢٣)، ودلت نتائج دراسة مقارنة أخرى، أجراها بستاني Bostani، على أن معدل التوافق الاجتماعي لدى أطفال المؤسسات أقل من أطفال الأسر العادية، وعلى تأثر معدل التوافق الاجتماعي لأطفال المؤسسات بمدة إقامتهم، فكلما زادت مدة إقامة الأطفال بالمؤسسات، قل معدل توافقهم الاجتماعي (رطروط والعطيات، ٢٠٠٧: ١٤)، وأظهرت نتائج دراسة مقارنة ثالثة أجرتها بعيبع (١٩٩٥)، أن هناك فروقا جوهرية دالة إحصائيا بين حصيلة لغة أطفال المؤسسات وحصيلة لغة أطفال الأسر العادية لصالح أطفال الأسر العادية (ص ١٠٨)، وكشفت نتائج الدراسات التي أجراها سبتيز Spitz عن خصائص الأطفال الملتحقين بمؤسسات الرعاية، المتمثلة في: كثرة بكائهم، وقلة اكتراثهم بالكبار، وكثرة عبوسهم، وقلة تعبيرهم النفسي، وضعف حصيلتهم اللغوية، وتأخر كلامهم، وضعف نموهم العقلي، وضعف نموهم الحركي، وقلة استكشافهم، وقلة ممارستهم للعب الاجتماعي، وارتفاع معدل صدامهم الانفعالي، وبلادتهم، وقلقهم، ونقص تركيزهم، وتدني مستوى ذكائهم، وقلة مقدرتهم على القيام بالتفكير المجرد، وصعوبة تعلمهم بعض المفاهيم كالوقت والمسافات، وقلة احساسهم ببعدي الماضي والمستقبل، وإحساسهم الزائد بالحاضر الآني، وعدم استدامة علاقاتهم مع الآخرين (سمارة، والنمر، والحسن، ١٩٩٩: ٧٥)، وقد أجرت إيمز Eames وزملاؤها دراسة مقارنة بين ثلاثة مجموعات من الأطفال الأيتام، ضمت الأولى: الأطفال الأيتام المتبنين، الذين أمضوا ثمانية أشهر أو أكثر في مؤسسة قبل تبنيهم، الثانية ضمت: الذين أمضوا أربعة أشهر منذ ولادتهم، والثالثة: عبارة عن المجموعة الضابطة التي ضمت أطفال في نفس العمر في أسر سليمة، وطبقت عليهم مقاييس التعلق والسلوك الاجتماعي، وقد تبين أن مجموعة الأطفال الثانية، الذين تم تبنيهم في سن مبكرة، قد تعادلت مع المجموعة الضابطة، أما المجموعة الأولى، فقد أظهرت سلوكا انسحابيا ونمطيا أكثر، كالتأرجح والاهتزاز، وترى إيمز وزملاؤها أن خبرة مؤسسات الأيتام تعرقل تطور جميع مجالات الذكاء، حيث تبين أن (٧٨%) من الأطفال الأيتام كانوا لدى تبنيهم متأخرين عن أقرانهم الطبيعيين في المهارات الحركية الدقيقة، والحركية الكلية واللغوية والشخصية والاجتماعية، وأشارت نتائج

الدراسة التتبعية التي أجريت لفحص ومتابعة النتائج بعد مضي ثلاث سنوات من التبني إلى إنه في حين تلاشت بعض المشكلات السابقة إلا أنها لم تنتهِ كلية، فكلما طالت مدة بقاء الطفل بالمؤسسة كانت معدلات مشكلاته السلوكية أعلى (الزيادات،٢٠١٥: ٤٧ ـ ٤٨)، أما نتائج دراسة قاسم (١٩٩٨) فقد كشفت عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين أطفال الأسر البديلة وأطفال المؤسسات في مفهوم الذات لصالح الأسر البديلة، وأكد قاسم على أن الحياة في أسرة بديلة من شأنها أن تؤدي إلى نتائج أفضل للأيتام من الذين يعيشون في مؤسسات (ص ٦٩)، ويقول (سمارة وآخرون، ١٩٩٩: ٧٥ ـ ٧٦): أنه بالمقارنة بين مجموعتين من الأطفال الأيتام الذين لم يتلقوا عناية من الأم من قبل، إذا تربت المجموعة الأولى خلال السنوات الثلاث الأولى في المؤسسات قبل أن تنتقل إلى أسر بديلة، ونشأت الثانية من بداية الأمر في أسر بديلة عن الأم، تبين أن المجموعة الأولى والتي تربت في المؤسسة تختلف عن المجموعة الثانية في الآتي:

- تكوين ميول مضادة للمجتمع، ونقص القدرة على تكوين علاقات اجتماعية سليمة مع الآخرين.
- تأخر في النمو العقلي واستمرار ذلك حتى المراهقة.
- تأخر في النمو اللغوي، وظهور مشكلات النطق والكلام واستمرارها طويلا.
- تأخر في النمو الجسمي والحركي.
- اتصاف سلوكهم بالعدوانية ضد الآخرين، كالضرب وتدمير الممتلكات.
- الغضب والسرقة والكذب.
- الميل للاتكالية والاعتماد على الكبار.
- نقص القدرة على التكيف الاجتماعي والانفعالي والميل للانعزال، والبرود الانفعالي، واستمرار ذلك إلى فترة المراهقة.

دلت نتائج الدراسات الاجتماعية والنفسية على إنه إذا ابتعد الطفل عن بيئته الطبيعية في الأسرة أصبح طفلا غير طبيعي ومعرضا للعديد من الاضطرابات النفسية والمشكلات

الاجتماعية، ذلك بأن هناك أسسا اجتماعية عامة لابد أن تتوافر في أنماط رعاية الأيتام، ومبدأ هذه الشروط العامة ومنطلقها أن يعيش الطفل في جو أسري واجتماعي، وهو الجو الطبيعي نفسه أو قريب منه ما أمكن ذلك، وكلما كان الطفل قريبا من البيئة الاجتماعية الطبيعية كان نموه سليما، وكلما ابتعد عن ذلك كان هذا النمو خلاف ذلك.

أن رعاية الطفل مجهول النسب داخل أسرة بديلة أفضل من إيداعه داخل مؤسسات الإيواء كالملاجئ وقرى الأطفال والمنازل الجماعية، فمهما كانت الخدمات المتوفرة له في تلك الدور، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مماثلا لطبيعة الأسرة، فهو يحتاج إلى أسرة من أم وأب في إيجاد تكيفه الشخصي والاجتماعي. وقد اثبتت الدراسات الميدانية المقارنة تميز أطفال الأسر البديلة على أطفال المؤسسات في كثير من الجوانب العاطفية والنفسية والاجتماعية والعقلية، ومن ثم فإنه لا يجب أن يودع الطفل المجهول النسب داخل المؤسسات مهما كانت إمكانياتها المادية إذا كانت هناك فرصة ولو ضئيلة لبقائه في أسرة، وفي حالة الاضطرار إلى اللجوء إلى المؤسسات الإيوائية يجب أن يلغى نظام العنابر في النوم والمعيشة، وإحلالها بنظام الأسر والبيوت حتى يتوفر له جو قريب من جو الأسرة يساعده على النمو السليم المتكامل، والارتباط بمجتمعه وأبناء وطنه.

تعد الأسرة البديلة بيئة تسهم في نمو الطفل فاقد الرعاية الأسرية بشكل أفضل، وكذلك تهيئ له الحياة مثل غيره من الأطفال الآخرين، تحميه من الوقوع فريسة الاستغلال أو الإهمال، وشأنها شأن غيرها من الأسر، فمن المتوقع أن يتعرض الأبوان لمواقف وخبرات مع طفلهم، وقد يواجهان مشكلات في أثناء تربيتهم وتعاملهم مع هذا الطفل، ولكن قد يواجه الأبوان البديلان صعوبة في بعض الأمور الخاصة بطفليهما المجهول النسب كذلك المتعلقة بعملية إخبار الطفل حقيقة وضعه، باعتباره طفلا مجهول النسب، إذ يحرص بعض الآباء على إخفاء هذا الأمر عن الطفل، رغبة في عدم إيذاء مشاعره، أو بسبب حبهم الشديد له وتعلقهم به، من هنا جاء إعداد هذه الدراسة لكي ما تكون مرجعا مهما للأسر البديلة، يمكنها من الاطلاع والإفادة مما ورد فيه من الأساليب والممارسات الفضلى المدعمة بالقصص والمواقف لاختيار الوقت المناسب لإخبار الطفل المحتضن بحقائق حياته بصورة مبسطة، وبفكرة مقبولة أدبيا وتربويا، إلى غيرها من القضايا التي تهم الطفل مجهول النسب المحتضن في أسرة بديلة.

إن هذه الدراسة تهدف بوجه عام إلى إعطاء صورة شاملة عن نظام الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب، من حيث واقعه ومستقبله، وتسعى إلى الوقوف على نقاط القوة التي يمتاز بها نظام الأسر البديلة وتزكيتها ونقاط الضعف التي تحول دون تأدية عمل هذا النظام والعمل على معالجتها، وتتحدد مشكلة الدراسة الحالية في محاولة الإجابة عن السؤال الآتي: ما التحديات التي تواجهها الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب وفرص تخطيها؟ وتنبع أهمية هذا السؤال من إجابته، التي قد تساعد على تطوير سياسات رعاية الأطفال مجهولي النسب في مصر، وإشراك الأسر المنجبة للأطفال الشرعيين وغير المنجبة في تحمل مسؤوليتها الاجتماعية تجاههم عن طريق دمجهم فيها؛ لخفض عدد مؤسسات رعاية الطفولة من حيث كونه مظهرا من مظاهر الترابط الاجتماعي، كما أن هذه الإجابة أيضا قد تسد النقص الحاصل في الدراسات الميدانية حول تقييم نظام الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب في مصر، وتثري معلومات الممارسين الاجتماعيين الميدانيين في اتخاذهم لقراراتهم المهنية المرتبطة بتحضين الأطفال مجهولي النسب للأسر سواء أكانت منجبة أو محرومة من الإنجاب.

ولكى ما تحقق هذه الدراسة أهدافها فلابد من ترجمتها إلى التساؤلات الآتية:

١ـ ما الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للأسر البديلة؟

٢ـ ما الأسباب التي تدفع الأسر لاحتضان طفل مجهول النسب؟

٣ـ ما المشكلات التي تواجه الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب؟

٤ـ ما السياسات التي من شأنها تطوير نظام الأسر البديلة؟

ثانيا:المداخل النظرية لدراسة العلاقة بين الطفل المحتضن والأسرة البديلة أوالحاضنة له

توجد عدة مداخل نظرية لدراسة الأسرة يمكن استخدامها في دراسة الأسر البديلة من أجل تحليل العلاقة القائمة بين الطفل المحتضن والأسرة البديلة أو الحاضنة له، وهذه المداخل كل منها يركز على زاوية معينة في الأسرة ويتخذها نقطة انطلاق عند البحث والدراسة. ومن أهم هذه المداخل ما يلي:

١- نظرية التبادل Exchange theory

يتطلع البشر في علاقاتهم الاجتماعية إلى تجنب السلوك المكلف الذي لا يعود بالفائدة عليهم، ويتأسس التبادل وفقا لذلك على أساس حساب التكلفة والعائد، وتفترض هذه النظرية أن كل علاقة بالآخر تنطوي على بعض الفائدة وبعض التكلفة، ويحاول كل طرف في علاقة ما أن يعظم ما يستفيده من العلاقة ويقلل التكلفة المبذولة فيها، بمعنى أن التجاذب يحدث بين الأشخاص حيث تكون الفائدة المتحصلة من العلاقة (مادية أم معنوية) أكبر من تكلفة العلاقة أي ما يبذله أطراف العلاقة في الحفاظ عليها واستمرارها (Bandura, 1999: 2). تتم رؤية العلاقات بين الأفراد على أنها تبادل للفوائد، حيث تدعي هذه النظرية أن الأفراد في العلاقات التبادلية يقومون بتقييم الفائدة مع توقع تلقيها في الوقت نفسه (كريب، ١٩٩٩: ١٠١ - ١٠٢)، كما تتوقع هذه النظرية أن وجود أي اضطراب في توقع تلقي الفائدة أو تقديمها سوف يؤدي إلى إرجاع وجدانية سيئة، وتفترض هذه النظرية أن العلاقة تتكون من التفاعل بين شخصين على الأقل ممن يتبادلون المكافآت المتلقاة من العلاقة، بعض هذه المكافآت ذو قيمة اقتصادية، وبعضها الآخر يكون له معنى أكثر أهمية بالنسبة للأفراد من ناحية المشاعر والعواطف (تيرنر، ١٩٩٩: ٣١٢ - ٣١٤)، فالتبادل لا يقتصر على الجانب الاقتصادي فقط وإنما يرتبط بالجوانب النفسية والاجتماعية، فتسير الحياة وفق سلسلة من التبادل تزيد وتنقص من مخزون الأفراد أو الجماعات من القوة أو الصيت، ويتم التبادل وفق قيم المجتمع ومعاييره فينتج عنه ما يطلق عليه التبادلية المعممة، وتعني أن الفرد عندما يقدم على مساعدة الآخرين يأمل في أن يحصل على مثلها عندما يحتاجها (ويكيبيديا الموسوعة الحرة، نظرية التبادل الاجتماعي).

إن نظرية التبادل هي نظرية اجتماعية نفسية ورؤية اجتماعية تفسر التغير والاستقرار الاجتماعي كعملية تبادل تفاوضية بين الأطراف المختلفة. وبناء على ذلك، فإن الحياة الاجتماعية تعد سلسلة مختلفة من الاختيارات ويفهم التفاعل بين الناس تبعا لذلك على أساس التبادل. ويسري التبادل على الطفل المجهول النسب والأسرة التي ضمته، فهو يحتاج إليها في أمنه، وتنشئته، ورعايته. وهي تحتاج إليه لرغبتها في الأجر والثواب، وفي سعادتها، وإثراء المواقف التفاعلية لأطفالها، وسد وقت فراغ أفرادها. إن احتضان الأسرة للطفل المجهول

النسب ليس نفعا ماديا، وإنما هو علاقة إنسانية أرست قواعدها الشرائع الدينية، وعززتها المواثيق الدولية، والتشريعات الاجتماعية. ومن هنا يمكن اعتبار احتضان الأطفال مجهولي النسب مسألة تهدف إلى تمكين الأسر المحرومة من الإنجاب، أو الأسر التي ترغب في أن تكون أسرا بديلة للأطفال فاقدي الرعاية الأسرية الطبيعية من تلبية هذا الاحتياج، وتوفير بيئة قريبة من البيئة الأسرية الطبيعية للأطفال مجهولي النسب.

٢- نظرية الدور Role theory

يمثل الدور المظهر الحركي للوضع الاجتماعي، ويركز على الحقوق والواجبات، أي على التوقعات المعيارية المرتبطة بالأوضاع السائدة في نظام اجتماعي معين (مان، ١٩٩٤: ٦١٢). وتعتبر هذه النظرية أن الناس تشغل أماكن في التركيبات الاجتماعية، وأن كل دور يرتبط بهذا الوضع، ويعتبر الدور مجموعة من التوقعات أو السلوكيات المرتبطة بوضع في التركيبة الاجتماعية، كما أن الفكرة توحي بأن الأدوار يجب تقديرها وفقا لمحيط العلاقات، والتي عن طريقها يمكن تحديد تلك الأدوار (Biddle, 1986: 68 - 69)، وتعد التنشئة الاجتماعية حسب المفهوم الاجتماعي ما هي إلا تدريب الأفراد على أدوارهم المستقبلية ليكونوا أعضاء فاعلين في المجتمع، وتلقنهم للقيم الاجتماعية والعادات والتقاليد والعرف السائد في المجتمع لتحقيق التوافق بين الأفراد، وبين المعايير والقوانين الاجتماعية، مما يؤدي إلى خلق نوع من التضامن والتماسك في المجتمع. وهي عملية تعلم وتعليم وتربية، تقوم على التفاعل الاجتماعي وتهدف إلى إكساب الفرد (طفلا فمراهقا فراشدا فشيخا) سلوكا ومعايير واتجاهات مناسبة لأدوار اجتماعية معينة، تمكنه من مسايرة جماعته والتوافق الاجتماعي معها، وتكسبه الطابع الاجتماعي، وتيسر له الاندماج في الحياة الاجتماعية (زهران، ١٩٨٤: ٢٤٣). ولما كانت عملية التنشئة الاجتماعية عملية تعلم، فإنها مثل كل عمليات التعلم تكون أبعد أثرا إذا ما تمت في الطفولة المبكرة لما عرف عن الأطفال في هذه المرحلة من قابلية للتعلم وثبات ما يتعلمونه في سلوكهم المستقبلي وفي نمط الشخصية التي تتكون وتتبلور في السنوات الأولى من العمر (الجميلي، ١٩٩٣: ٥٠). وتسهم أطراف عديدة في عملية التنشئة الاجتماعية كالأسرة والمدرسة والرفاق وغيرها. إلا أن أهمها الأسرة بلا شك، كونها المجتمع الإنساني الأول الذي يعيش فيه الطفل، والذي تنفرد في تشكيل شخصية

الطفل لسنوات عديدة من حياته، وتعتبر حاسمة في بناء شخصيته، ومن ثم فهي التي تشكل وجدانه الاجتماعي والثقافي وترسخ فيه قيما وعادات وتقاليد وسلوكيات اجتماعية (العزب، ٢٠١٧: ٢٧). وإيمانا بذلك الدور المنوط بالأسر تجاه الأطفال، اتجهت الدولة المصرية عام ١٩٥٩ إلى إقرار نظام الأسر البديلة، وتهدف في ذلك إلى توفير بيئة أسرية للأطفال مجهولي النسب والمحرومين من الرعاية الأسرية بغرض تنشئتهم تنشئة سليمة بما يحقق المصلحة الفضلى لهؤلاء الأطفال، وتحويلهم إلى أعضاء فاعلين قادرين على القيام بأدوارهم الاجتماعية وتهيئيهم وفقا للقيم والمعايير والتوجهات السائدة والمعتقدات المشتركة.

وقد حدد بارسونز Parsons خمس ميكانزمات تتمايز عن بعضها، وفي ذات الوقت تتكامل معا لتفسيرعملية التنشئة الاجتماعية،وهذه الميكانزمات هي: التدعيم Reinforcement، والكف Inhibition، والإبدال Susptitution، والتقليد Imitation ، والتوحد Identification (عبد الله، ٢٠١٢: ٣٠). فالطفل المحتضن في عملية التنشئة الاجتماعية في الأسرة التي احتضنته يتعرض لهذه العمليات جميعا، فيبدأ بتدعيم بعض المظاهر السلوكية وفي ذات الوقت يتعرض لعديد من عمليات الإبدال والكف لبعض المظاهر السلوكية الأخرى، ويتم توجيهه نحو موضوعات جديدة تحقق له اشباعات معينة حيث يكون أكثر توازنا في المجتمع الذي يعيش فيه، ومن خلال عملية التقليد يتم اكتساب العناصر والمهارات الثقافية والسلوكية (فالتقليد هنا نوع من التعلم القائم على الذات)، بينما تؤدي عملية التوحد إلى تمثيل القيم، أي دمج القيم في ذات الطفل، ومن ثم فإن الأسرة البديلة هي النموذج الأمثل للجماعة الأولية التي ينشأ فيها الطفل مجهول النسب، فمن خلال التنشئة التي تقوم بها تجاهه فإنها تزوده بالمهارات والخبرات اللازمة للعيش في جماعة إنسانية والتكيف لمطالبها والتوافق مع قيمها ومعاييرها، وتساعد هذه التنشئة على بناء الشخصية وتكوين مفهوم الذات ولعب الأدوار وتحمل المسؤولية.

٣- نظرية الانسحاب Withdrawal theory

يميل الطفل إلى الانسحاب من المواقف التي لا يتمكن من مواجهتها وهذا يعيق قدرة الطفل المستقبلية على التفاعل الإيجابي مع مواقف الحياة المختلفة، ويشير الانسحاب أو

الهرب إلى الابتعاد الجسدي المادي أو النفسي عن الأشياء والمواقف والناس والمثيرات التي لا يتمكن الطفل من الاستجابة إليها، وحينما ينسحب الطفل من الموقف يعتقد أن هذا هو الحل الأسهل طالما أن هذا الأسلوب لا يتطلب جهدا كبيرا. والانسحاب والهرب غالبا ما يجعلان الطفل في حالة من عدم القدرة على التكيف في المواقف الاجتماعية الخاصة والعامة (غراب، ٢٠١٤: ٨٢ – ٨٣). وقد تعددت المصطلحات والأوصاف التي استخدمت في الدراسات التربوية والنفسية لوصف مفهوم الانسحاب الاجتماعي، ومن أهمها: العزلة الاجتماعية، والانطواء على الذات، والانسحاب الناتج عن القلق، فهو نمط من السلوك يتميز عادة بإبعاد الفرد عن نفسه وعن القيام بمهمات الحياة العادية، ويرافق ذلك إحباط وتوتر وخيبة أمل، كما يتضمن الانسحاب الاجتماعي الابتعاد عن مجرى الحياة الاجتماعية العادية، ويصاحب ذلك عدم التعاون وعدم الشعور بالمسؤولية، وأحيانا الهروب إلى درجة ما من الواقع الذي يعيشه الفرد (Coplan & Rubin, .2008: 4 – 5). أما العالمان كيل وكاتيل Kale & Kayeetal فقد عرفا الانسحاب الاجتماعي تعريفا إجرائيا حيث قدما التعريف الآتي: «الأطفال المنسحبين اجتماعيا هم أولئك الذين يظهرون درجات متدنية من التفاعلات السلوكية والاجتماعية» (القمش والمعايطة، ٢٠٠٦: ٢٣٤). ويمكننا القول بصورة عامة أن الانسحاب الاجتماعي هو: الميل إلى تجنب التفاعل الاجتماعي، والإخفاق في المشاركة في المواقف الاجتماعية بشكل مناسب، والافتقار إلى أساليب التواصل الاجتماعي، ويتراوح هذا السلوك بين عدم إقامة علاقات اجتماعية، أو بناء صداقة مع الأقران، إلى كراهية الاتصال بالآخرين والانعزال عن الناس والبيئة المحيطة، وعدم الاكتراث بما يحدث في البيئة المحيطة.

من حق كل طفل أن تكون له هوية واسم حسن يكنى به لأن الاسم يستمر مع الشخص مدى الحياة ويكون رمزا له في حياته، ولا يمكن للطفل غير الشرعي أن يعيش دون اسم ولا هوية، وهنا قد تواجه الأسر البديلة صعوبة تتعلق بعملية إخبار الطفل المحتضن مجهول النسب بحقيقة وضعه بالأسلوب الملائم والصحيح، وبعضها يجتهد خطأ فيحرص على إخفاء حقيقة وضعه عنه منذ احتضان هذه الأسرة له، رغبة منها في عدم إيذاء مشاعره أو من شدة حبها له وتعلقها به، أو اعتقادا منها بأنه إذا عرف الحقيقة فسوف ينفر من أسرته البديلة، ولا يعود يتقبلها، وتزداد المشكلة إذا أوحت له بأنها أسرته الحقيقية، ويكتشف فيما بعد خداعهم له،

ومن جهة أخرى فمن حق الطفل أن يعرف تاريخ حياته وأصله ونشأته، ولكن لابد من اختيار الوقت الملائم لإخباره بحقائق حياته بصورة مبسطة، وبفكرة مقبولة أدبيا وتربويا، وأكثر الأوقات مواءمة ما كان فيها توازنه الانفعالي عاليا، ويجب إخباره بطريقة طبيعية وتجنب حجب هذه الحقائق عنه، لأنه لابد من أنه سيكتشفها، وقد يكون هذا الاكتشاف في وقت غير مناسب، وغير معلوم، وفي حالة نفسية غير مستقرة، والذي ربما يتسبب عنه فقدان الاتزان الانفعالي، ومواجهة صراع عنيف يؤثر في حياته تأثيرا سيئا في حاضره ومستقبله، إن معرفة الأبن المحتضن بحقيقة وضعه أمر يحتاج إلى عناية واهتمام، وذلك لما قد يترتب على معرفته بحقيقة أمره من تبعات نفسية واجتماعية، فقد يعاني بعض المحتضنين من صدمة، فهو أمر لم يتوقعوه، وقد يعتبره بعضهم على أنه ابتلاء من الله عز وجل لهم في الدنيا، وآخرون يمضون في حياتهم وكلهم أمل بأن يكون مستقبلهم أفضل من ماضيهم، ولكن على الآباء والأمهات أن يعدوا أنفسهم للتعامل مع ما قد يصدر عن الطفل المحتضن من ردات فعل سلوكية وانفعالية عند معرفته بحقيقة وضعه، فحينها يشعر بالصدمة لسماعه الخبر، فقد يكون بالنسبة له أمرا مخيفا يحمل في طياته الكثير من الآلام، ويزداد الشعور بالصدمة عندما يعرف الخبر من أشخاص خارج نطاق أسرته. إذ يقوم بالرد على ما سمعه بطريقة غاضبة، فيها نوع من عدم التصديق، وربما يحاول التشكيك في ذلك، وإنكار هذا الأمر. يزداد شعوره بالغضب من الأمر، وكذلك ممن حوله، وبخاصة إذا لم يكن هناك وضوح في طريقة إخباره بالأمر، أو في إخفاء بعض الحقائق عنه. وهذا الأمر يدفعه لأن يحاول البحث عن معلومات أكثر، ومن مصادر أخرى ليجيب عن السؤال الأكثر أهمية في حياته: من أنا؟، ومن أكون؟ وينجم عادة لدى المحتضن الشعور بالوحدة حين يدرك أنه مختلف عن أقرانه من ناحية أصل الأسرة، وهذا يدفعه إلى العزلة، وتجنب الأخرين إيمانا منه أنه أسلم أن يكون بعيدا أو وحيدا، واستخدام الوحدة باعتبارها آلية دفاع عن الخوض في موقف محرج، وهو أصل هذا الطفل، وعلى الأسرة البديلة أن تدعم طفلها مجهول النسب وأن تقوم بأنشطة ومشاركات مع الطفل لتساعده على تجاوز الشعور بالوحدة.

إن سلوك الانسحاب الاجتماعي يؤدي إلى محدودية العلاقات الاجتماعية، حيث يظهر هؤلاء الأطفال الانطواء والحزن وعدم التفاعل، ويسبب الانسحاب الاجتماعي ابتعاد الأقران

عن الطفل المنسحب، وعدم اللعب معه سواء في البيت أو في المدرسة، كما أن انسحاب الطفل وابتعاده يتسبب في عدم النضج الاجتماعي، وعدم قدرته على تمثيل الأدوار الاجتماعية، ونقصا في التعلم والإدراك الاجتماعي، والنمو المعرفي. أما الانسحاب الاجتماعي الشديد فيتضمن عدم الاتصال بالحقيقة، وتطوير عالم خاص، والاستغراق الشديد في أحلام اليقظة لدرجة قد تؤدي إلى الوصول بالطفل إلى حالة التوحد، كما أن الأطفال المنسحبين اجتماعيا من هذا النوع يفتقدون الثقة بالآخرين، وهم غير مبالين، ولا يشتركون في المناسبات الاجتماعية مطلقا (بطرس، ٢٠١٤: ٢١٨).

٤- نظرية التعلق Attachment theory

يولد الطفل عاجزا عن إشباع حاجاته ومن ثم يعتمد على القائمين على رعايته وخاصة الوالدين في إشباع حاجاته، ولذلك ينشأ بين الطفل والقائمين على رعايته ما يعرف بمشاعر التعلق، والتي بدورها تؤثر على نمو شخصية الطفل، فالتعلق هو رابطة من الأحاسيس والانفعالات تنشأ بين الطفل والقائمين على رعايته، والهدف من سلوك التعلق هو التأكيد على مشاعر الأمن في وجود الخطر أو التهديد بالخطر، فسلوك التعلق يعطي الطفل الشعور بالأمن، ويعد سلوك التعلق أمرا هاما في تكوين علاقات انفعالية واجتماعية مع الآخرين. ويعرف اينزوورث وبوولبي Ainsworth & Bowlby التعلق بأنه: «رابطة انفعالية قوية يشكلها الطفل مع مقدم الرعاية الأساسي، وتصبح فيما بعد أساسا لعلاقات الحب المستقبلية» (Ainsworth & Bowlby, 1991: 336). كما يعرف التعلق أيضا بأنه: «رابطة انفعالية قوية تؤدي بالأطفال إلى الشعور بالسعادة والفرح والأمن عندما يكونون بالقرب من مقدم الرعاية الأساسي، والشعور بالتوتر والانزعاج عندما ينفصلون عنه مؤقتا» (LaFreniere, 2000: 22). وكان أول من ساهم في تقديم نظرية تصِف طبيعة العلاقات المبكرة هو عالم النفس الشهير فرويد Freud حيث افترض أن ثدي الأم هو مصدر الحب بالنسبة للطفل، وأن تعلق الطفل بالشخص المألوف له (الأم) يمنحه التغذية التي يحتاجها ويشبع لديه الرغبة الفطرية بالشعور بالأمان (وطفة والرميضي، ٢٠٠٤: ٥٤). وفسر هل Hall التعلق باستخدام مفهوم خفض الدافع، فالأم تشبع جوع الطفل (دافع أولي)، ومن ثم يصبح وجود الأم دافع ثانوي بسبب اقتران شعور الطفل بالشبع بوجود الأم، أما سكنر Skinner فيرى أن سلوك

التعلق يزداد ويقوى في حالة أتبع بمجموعة من المعززات، ويتناقص عندما يتبع بمعاقبات كالتوبيخ وسحب الامتيازات (أبو غزال، ٢٠٠٧: ٥٩). وأعتقد هارلو Harlow أن التعلق لا يعتمد على إشباع دافع الجوع، وإنما على ما يوفره مقدم الرعاية من فرص التلامس والاتصال المريح، وكتب يقول: «لا يعيش الإنسان بالحليب وحده، فالحب عاطفة لا تحتاج إلى زجاجة توضع فيها، أو ملعقة يلقم بها، ولابد من التيقن من أننا لا نربح شيئا عند الاستخفاف بالحب، والاستهانة بقوته» (سابولسكي، ٢٠٠٢: ١٤٠). وتعد نظرية بوولبي Bowlby من أهم النظريات وأكثرها قبولا في الوقت الحاضر التي حاولت تفسير مفهوم التعلق، إذ يعتقد بوولبي أن الطفل يمتلك الأسس الغريزية التي تسهل نمو التعلق، وتطور العلاقات المتبادلة بينه وبين الحاضن (أي الأم في الأغلب)، فسلوك الصغير حديث الولادة يثير اهتمام الأم واستجاباتها نحوه، فالنظام التفاعلي بين الأم والصغير يتأثر إلى حد بعيد بالاستجابات الأولية لهذا الأخير. إن هذه الأسس الغريزية تجعل كل منهما قادر على إدراك إشارات الآخر، فهو يبتسم بسهولة استجابة للأم ويتبعها بنظرة مدة أطول من أي شخص آخر في محيطه. إلا أن التمييز الحسي للأم لا يمكننا من القول بأن الطفل يحافظ على البقاء بالقرب منها، فبكاء الطفل لدى مغادرة الأم ومحاولته اتباعها يعتبر مؤشرا لسلوك التعلق (قنطار، ١٩٩٢: ٤٠). ومع ذلك يمكننا القول أن الطفل يتعلق بأي شخص يقدم الرعاية بشكل دائم ويتواجد معه، بحيث يتميز برقة المشاعر وسرعة الاستجابة معه في المعاملات الاجتماعية، حيث إن نوعية الروابط الاجتماعية تعد أكثر تأثيرا من كمية الوقت الذي يقضى فيها، بشكل عام فإن الأم عادة ما تكون رمز التعلق عند الطفل، مع ذلك فإنّه يمكن لأي شخص أن يأخذ هذا الدور إذا تصرَف مع الطفل بطريقة حميمة وبشكل منتظم لفترة من الزمن (راتر، ١٩٨١: ١٠٨ – ١٠٩). إن تكوين علاقات التعلق في الطفولة المبكرة يعتبر أمر ضروري لنمو العلاقات الاجتماعية الانفعالية في الطفولة اللاحقة وفي الرشد، وتعد الأم أو ما ينوب عليها في سد احتياجات الطفل هي موضوع التعلق لدى الطفل، وذلك من خلال تكوين أنماطا متسقة ومتمايزة نوعيا للطريقة التي يتفاعل فيها هذان الطرفان (أم – طفل) مع بعضهم البعض.

إن القاعدة الفطرية في البشر أن ينشأ الطفل بين أبوين وتحت رعايتهما، ولهذا حكمة إلهية عظيمة، فالأسرة الطبيعية هي البيئة ذات الأثر الفعال في تشكيل وتنمية جميع جوانب

النمو لدى طفلهما، حيث يتحقق للطفل من خلال أبويه إشباع الحاجات الأساسية لديه، سواء أكانت حاجات اجتماعية أم نفسية أم عاطفية، أم أمثالها من الحاجات اللازمة لنموه النمو السليم المتوازي، وتؤكد العديد من الدراسات أهمية وجود الأبوين في حياة الطفل، وخطورة فقدهما أو أحدهما على مستقبل حياته وبخاصة الأم (السدحان، ٢٠٠٣: ٩٩). إن توفير أسرة بديلة للطفل تضم أما وأبا يحققان له نموا سليما من خلال رعايتهما وتربيتهما له، إذ يعد توفير الجو الأسري أو الحياة الأسرية أمرا مختلفا عن وجود الأم والأب، والحياة الأسرية بطبيعتها أكبر من أفرادها، فالطفل وأمه يشكلان علاقة ونظاما ثنائيا قائما بذاته، وكذلك الطفل وأبيه، والأم والأب. وكل هذه الثنائيات هي بمنزلة تفاعلات تحدث داخل الأسرة، وهي تؤثر في الطفل والوالدين معا. وبناء على الأدلة المتاحة لنا يمكن أن نفترض أن تكوين علاقات التعلق من الأرجح ألا تحدث في بيئة قاصرة التنبيهات تقل فيها فرص التفاعل المكثف على المستوى الفردي بين القائم بالرعاية والطفل، ويترك فيها الصغار يبكون دون الالتفات إليهم، وحيث تقدم الرعاية في أوقات روتينية محددة وليس كاستجابة لمطالب الصغير، وحيث يوجد أكثر من قائم بالرعاية ليس من بينهم من يتفاعل بشكل منتظم مع الطفل لمدة شهور أو أكثر، ومثل هذه البيئة تتاح في المؤسسات الإيوائية الكبيرة ذات الطابع التقليدي القديم. وينمو التعلق الوجداني عادة خلال الثمانية عشر شهر الأولى في حياة الصغير، وبذلك فإن الرعاية بالمؤسسات خلال السنتين أو الثلاث الأول من الحياة ربما تكون هي الموقف الوحيد الذي من الأرجح أن يرتبط بالخلل في تكوين روابط التعلق، وقد خلصت اينزوورث Ainsworth وفقا لملاحظتها لتفاعل الأمهات بالصغار إلى: «أن أحد الخصائص الأساسية لحدوث التعلق هو حساسية الأم لما يصدر عن أطفالها من اشارات ونداءات، فالتعلق ينمو باتجاه الأشخاص الذين يمكنهم تكييف سلوكهم وفقا لحاجات ومطالب الطفل، والذين يضعون في الاعتبار تفرده الخاص وذلك بأن يتعلموا كيفية التعرف على اشاراته الخاصة الصادرة عنه» (راتر، ١٩٨١: ١٩). غير أن هناك ما يشير إلى أن التعلق قد يكون أكثر قوة إذا كان عدد القائمين على رعاية الطفل محدودا، كذلك فإن الرعاية الروتينية وإطعام الطفل ليست شروطا ضرورية لحدوث التعلق وإن كانت تسهل نموه. ومن هنا فلا عجب أن نرى حرص الحكومة المصرية على إيلاء جانب الأسر البديلة العناية الكبيرة، حيث وضعت له العديد من المزايا والتسهيلات الإدارية بما يكفل توجيه

أكبر قدر ممكن من هؤلاء الأطفال إلى أسر بديلة. ومن المعلوم تفوق نمط الرعاية الأسرية البديلة للطفل على نمط الرعاية المؤسسية بمراحل عديدة، إذ يتوافر للطفل العيش وسط أم وأب يغدقان عليه من الحنان والعطف ما قد يفتقده من عاش في بيئة مؤسسية إيوائية أو في دور التربية الاجتماعية. ولم يعد التعويض عن الحرمان دائما هو الدافع وراء احتضان الأسر لمجهولي النسب، وإنما نيل ثواب كفالة اليتيم، تكون دافعا في أحيان أخرى، إذا علمنا اختلافها عن التبني الذي حرمه الإسلام. وقد اتسع نطاق الأسر البديلة، التي تحتضن بمجهولي النسب، بدلا من تركهم معزولين في دور رعاية الأيتام، وشهدت عملية الاحتضان تحولا نوعيا مميزا، باتساع مشاركة الأسر الغنية وطبقة رجال الأعمال، بعد أن كانت قاصرة في الماضي على الأسر الشعبية ومحدودي الدخل، وأكدت متابعة حالات الاحتضان أنها تشكل إشباعا متبادلا لعواطف الأسرة البديلة والطفل المحتضن على حد سواء، حيث يمثل كل منهما حاجة ضرورية وعاطفية وحياتية للآخر.

وينبغي إيضاح الاختلاف بين نمطين أساسيين للتعلق هما: التعلق الآمن Secure attachment وفيه يكون الطفل متأكدا من أن الأم أو من في محلها متواجد دائما ومتعاون، وهنا ينشأ طفل مرتاحا ودودا ومتعاونا، طلق في الحديث، وذو مهارات مختلفة. والتعلق غير الآمن Unsafe attachment وفيه يكون الطفل غير متأكد من أن الأم سوف تكون متواجدة ومتجاوبة ومتعاونة عند الاحتياج (أي يتعرض لحرمان جزئي من الأم، أو أن يكون اتجاه الأم غير ودود نحو طفلها)، حيث يعتبر الطفل محروما من الأمومة حتى لو كان يعيش مع أسرته إذا لم تكن لدى أمه القدرة على منحه رعاية الحب التي يحتاج إليها (يمينة، ٢٠١٥: ٧٣). وعادة لن تخرج أنماط تعلق الأطفال مجهولي النسب بمحتضنهم (وهي الأم في الأغلب) عن تعلقهم الآمن، الذي يشعرون فيه بوثوقهم من حصولهم على ما يحتاجونه من رعاية، وتعلقهم غير الآمن، الذي يلمسون فيه قلقهم بالانفصال عن حاضنهم. ويمكننا القول بصفة عامة أن لعملية التعلق أثار هامة جدا وبعيدة المدى بالنسبة للنمو، فإذا لم ينجح الطفل في هذه الفترة في تكوين علاقة انفعالية اجتماعية وثيقة وآمنة مع أمه أو الحاضن، فسوف يستحيل عليه أن يكون الثقة والأمان اللازمين للنمو السوي في المراحل التالية.

ثالثا: نظام الأسر البديلة في مصر

يتضح معالم نظام الأسر البديلة في مصر في سياق الجدول التالي:

الجهة	قطاع الشئون الإجتماعية
اسم القطاع	الرعاية الاجتماعية
نبذة	يعتمد هذا النظام الذي بدأته وزارة التضامن الاجتماعي عام ١٩٥٩م على إلحاق الأطفال المحرومين من الرعاية الأسرية خاصة مجهولي النسب بأسر يتم اختيارها وفقا لشروط ومعايير تؤكد صلاحية الأسرة وسلامة مقاصدها لرعاية هؤلاء الأطفال دون استغلال لهم أو لمصالح ذاتية.
الفئة المستهدفة	الطفل
الشروط والأحكام	١- أن تكون ديانة الأسرة ذات ديانة الطفل، وأن يكون الزوجان مصريين. ٢- أن تتكون الأسرة من زوجين تتوفر فيهما مقومات النضج الأخلاقي والاجتماعي بناء على بحث اجتماعي تقوم به الإدارة الاجتماعية المختصة، ومر على زواجهما ثلاث سنوات على الأقل وألا تقل سن كلا منهما عن خمسة وعشرين سنة ولا يزيد على ستين سنة. ويجوز الإعفاء من شرط استمرار الزواج لمدة ثلاث سنوات على الأقل في حالة ثبوت العقم الدائم لأحد الزوجين، كما يجوز الإعفاء من شرط ألا يزيد سن كلا الزوجين في الأسرة البديلة على ستين سنة طبقا لما يسفر عنه البحث الاجتماعي. واستثناء مما تقدم يجوز للأرامل والمطلقات ومن لم يسبق لهن الزواج وبلغن من العمر ما لا يقل عن ثلاثين سنة كفالة للأطفال إذا ثبت صلاحيتهن لذلك. ٣- أن تتوافر في الأسرة التي تطلب الكفالة أو الفرد الصلاحية الاجتماعية والنفسية والصحية للرعاية، وإدراك احتياجات الطفل محل الرعاية. ٤- ألا يزيد عدد الأطفال في الأسرة عن اثنين إلا إذا كانوا قد وصلوا إلى مرحلة الاعتماد على النفس، ولا يسمح للأسرة برعاية أكثر من طفل إلا بعد موافقة مديرية التضامن الاجتماعي المختصة. ٥- أن يكون مقر الأسرة في بيئة صالحة تتوافر فيها المؤسسات التعليمية والدينية والطبية والرياضية، وأن تتوافر الشروط الصحية في المسكن والمستوى الصحي المقبول لأفراد الأسرة. ٦- أن يكون دخل الأسرة كافيا لسد احتياجاتها. ٧- أن تلتزم الأسرة البديلة بتيسير مهمة ممثلي إدارة الأسرة والطفولة بمديريات التضامن الاجتماعي في الإشراف والزيارات الميدانية للأسرة البديلة والطفل ومتابعته بطريقة لا تخل بمبدأ السرية والمهنية. وأن تقبل التعاون مع إدارة الأسرة والطفولة في وضع الخطط لصالح الطفل محل الرعاية بما في ذلك عودته للمؤسسة الاجتماعية أو نقله إلى بيت بديل آخر. ٨- أن تكون ظروف الأسرة البديلة ووقتها يسمحان لها برعاية الطفل محل الرعاية. ٩- أن تتعهد الأسرة كتابة بالحفاظ على نسب الطفل. ١٠- أن يكون الزوجان حاصلين على شهادة الثانوية العامة على الأقل أو ما يعادلها. ١١- أن تجتاز الأسرة الراغبة في الكفالة الدورة التدريبية التي تنظمها وزارة التضامن الاجتماعي. ١٢- يحق للأسرة البديلة أن توصى للطفل محل الرعاية أو تهبه من أملاكها القدر الذى تراه وفقا للقانون. كما لها أن تدخر مبالغ له تسلم دوريا لإدارة الأسرة والطفولة،

	وعلى هذه الإدارة إضافة هذه المبالغ إلى حساب الطفل في صندوق توفير ولا يجوز الصرف من المبالغ المودعة إلا بعد إيضاح الأسباب المبررة لذلك واعتمادها من رئيس لجنة الرعاية البديلة. ١٣- يجوز أن يحمل الطفل مجهول النسب ذكرا كان أو أنثى لقب عائلة الأسرة المحتضنة في نهاية اسمه، ويثبت ذلك في ملف الطفل دون أن يترتب على ذلك أي أثر من آثار التبني. ١٤- تلتزم الأسرة البديلة بأن تخطر إدارة الأسرة والطفولة المختصة فورا عن كل تغيير في حالتها الاجتماعية أو في محل إقامتها وبكل تغيير يطرأ على ظروف الطفل محل الرعاية مثل تشغيله في عمل أو إلحاقه بمدرسة أو هروبه أو وفاته أو زواج الفتاة. ولا يجوز لها السفر إلى الخارج – بصحبة الطفل محل الرعاية أو بدونه– إلا بموافقة مكتوبة من إدارة الأسرة والطفولة بمديرية التضامن الاجتماعي المختصة. ١٥- يجوز استمرار الرعاية مؤقتا مع الأب البديل في حالة وفاة الأم البديلة، وذلك بعد موافقة اللجنة العليا للأسر البديلة.
الإجراءات	١- تتقدم الأسرة بطلب للإدارة الاجتماعية الموجودة داخل نطاق الموقع الجغرافي لإقامتها. ٢- تقوم أخصائية الأسرة والطفولة بالإدارة الاجتماعية بعمل بحث ميداني للتأكد من استيفاء الأسرة للشروط المذكورة سابقا. ٣- تعد مذكرة مرفق بها المستندات المطلوبة وتقرير عن حالة الأسرة الاجتماعية للعرض على اللجنة المحلية للرعاية البديلة برئاسة السيد/ مدير مديرية التضامن الاجتماعي المختصة للبت في الموضوع. ٤- عندما توافق اللجنة على تسليم الأسرة للطفل تتسلمه إما من مراكز الأمومة والطفولة أو من دور الحضانة الإيوائية، وتتم الرعاية داخل الأسرة إما أسر بديلة بدون أجر (كفالة الطفل داخل الأسرة كفرد من أبنائهـــا ولا تتقاضى أجر مقابل رعايتهم له) أو بأجر(حيث تصرف للأم البديلة مكافاة رمزية مقابل نهايـــة الإشراف بعد استقلال الأبناء، بالزواج للبنات والعمل للأولاد). ٥- إلزام الأسرة البديلة بفتح حساب ببنك ناصر الاجتماعي أودفتر توفير عقب تسلم الطفل محل الرعاية بمبلغ لا يقل عن خمسة آلاف جنيه. ٦- تحرير عقد رعاية بين الأسرة البديلة وإدارة الأسرة والطفولة بالمديرية المختصة.
المستندات المطلوبة	١- صورة البطاقة للزوج والزوجة. ٢- صورة عقد الزوج. ٣- صورة شخصية للزوج والزوجة. ٤- عقد الإيجار أو ملكية الشقة. ٥- فاتورة كهرباء. ٦- مفردات المرتب أوالمعاش للزوجين إذا كانوا يعملوا أو الزوج فقط إذا ثبت أن الزوجة لا تعمل. ٧- صحيفة الحالة الجنائية عند قيام الزوج بأعمال حرة.

المصدر: وزارة التضامن الاجتماعي. نظام الأسر البديلة (تفاصيل الخدمة).

وقد أنشأت وزارة التضامن الاجتماعي قاعدة بيانات للأسر البديلة تضم بيانات الأسر البديلة والأطفال المحتضنين، حيث تم تسجيل حتى أواخر٢٠١٨ البيانات الكاملة لعدد

(٩٥٤٣) أسرة بديلة تحتضن (٩٧٠٤) طفل (وزارة التضامن الاجتماعي، ٢٠١٨/١٢/١١). وفي إطار حرص الوزارة على تذليل كافة العقبات أمام كفالة الأيتام، أتاحت من خلال موقعها الرسمي تسجيل طلب الكفالة أونلاين online لراغبي الكفالة، وخصصت خطا ساخنا لتلقي شكاوى الأسر البديلة، وكافة الاستفسارات والتساؤلات الخاصة بكفالة الأيتام، وأعدت دليل الأسر البديلة من أجل كفالة آمنة وصحية، وذلك في إطار اتخاذ عدة خطوات هامة ومتفاعلة لتطوير منظومة الأسر البديلة، مع العمل على تذليل كافة العقبات التي واجهت الأسر البديلة إعمالا لصحيح حكم القانون وتحقيقا للمصلحة الفضلى للأطفال.

تسعى وزارة التضامن الاجتماعي إلى جذب أكبر قدر من المواطنين المصريين إلى برنامج الأسر البديلة وتوعية المجتمع بضرورة توفير رعاية أسرية جيدة لكل طفل إما في أسرهم الطبيعية أو عن طريق تقديم رعاية بديلة لهم في حالة فقدان الأسرة. وقد أطلقت وزارة التضامن الاجتماعي مؤخرا، الحملة التوعوية "عيلة لكل طفل"، وذلك بالتعاون مع هيئة إنقاذ الطفولة، في إطار من العمل المشترك نحو التوعية بمنظومة الأسر البديلة، وتأتى حملة "عيلة لكل طفل" لتسلط الضوء على أهمية مفهوم الاحتضان داخل أسرة سوية بما يحقق الاستقرار والدعم المعنوي للطفل، مع الدعوة لتغيير المفهوم التقليدي السائد عن الكفالة، والذي اقتصر على الدعم المادي للطفل بما يسهم في تحقيق تنشئة سوية للأطفال. وقد تم تصميم الحملة لتشجيع الأسر التي لديها أطفال بالفعل على احتضان طفل إلى جانب أبنائها الطبيعيين بما يساعد على توسيع قاعدة البيانات الخاصة بالاحتضان في مصر، وأيضا معالجة المفاهيم الخاطئة والرؤية السلبية للطفل المحتضن بما يعزز التصور الإيجابي لمفهوم الاحتضان والرعاية البديلة في مصر.

إن نظام الأسر البديلة من أهم برامج رعاية الأيتام، إلا أن البعض يرى أنها لن تستطيع تحقيق النتائج الإيجابية والأهداف المرجوة لمن تحتضنهم، إلا في حال الاختيار المناسب لهذه الأسرة ليتم تعويض الطفل تربويا ونفسيا عما فقده وحرم منه، وتحري الدقة في اختيار الأسرة البديلة، وأن تكون مهيأة لتربية الطفل من جميع النواحي سواء الاجتماعية أو التربوية أو النفسية، وهذا ما حرص عليه نظام الاحتضان في الأسر البديلة، ومن هنا تعد الأسر البديلة من أهم الوسائل لرعاية الأيتام.

ويعتمد نظام الأسر البديلة على إلحاق الأطفال المحرومين من الرعاية الأسرية، خاصة مجهولي النسب بأسر يتم اختيارها وفقا لشروط ومعايير معينة تؤكد صلاحية الأسرة لرعاية هؤلاء الأطفال دون استغلالهم، وتتم متابعة الطفل في كل مرحلة من مراحله العمرية حتى بلوغه سن الرشد على أن تتم الزيارات في إطار من السرية والمهنية.

ومن المؤكد أن أثر الأسرة البديلة في رعاية هذه الفئة من الأطفال قد لا يقل عن الأسرة الطبيعية إلا في حالة عدم ملائمة بعض هؤلاء الأطفال لمثل هذه الأسر أو عدم تقبلهم للرعاية البديلة، ويمكن أن يكون أثر الأسرة البديلة أكثر إيجابية في حالة توحد هؤلاء الأطفال معها وتقبلهم لموقف إحلالها محل الأسرة الحقيقية.

إن نشر فكرة الأسر البديلة سيخفف عبئا كبيرا خاص بمواجهة العديد من التحديات داخل دورالأيتام والمتعلقة بالتغيير المستمر على الأطفال في الأخصائيين الاجتماعيين والنفسين بما يؤدى إلى تغيير وصعوبة في تحقيق الرعاية المستقرة للأبناء بالدور.

ويذكر أن الأسرة البديلة برنامج منتشر بالعديد من الدول العربية والإسلامية وهى تجربة أثبتت نجاحها وعائدها الإيجابي على الأطفال والأسر، فلقد سطرت العديد من الأسر نماذج واقعية لأسر مرت بتجربة ناجحة في الاحتضان، وظهرت ممارسات تتضمن القيام بإعادة الاحتضان لطفل آخر كي يقاسم الطفل الأول المحتضن الحياة في كنف الأسرة الحاضنة، ويتجاوز بذلك البقاء وحيدا بلا أطفال من سنه، كما تابعت أسر أخرى رعايتها لأبنائها المحتضنين إلى أن أنهوا دراستهم الجامعية، وأصبحوا يشغلون وظائف مرموقة، إضافة إلى قيام بعض الأسر الحاضنة بتزويج أبنائها المحتضنين والذين أصبحوا آباء وأنجبوا أطفالا، مما جعلهم يعيشون دور الأجداد بوجود الأحفاد.

رابعا: منهجية الدراسة وإجراءاتها

يستخدم الباحث مجموعة من الإجراءات المنهجية، للإجابة عن تساؤلات الدراسة وتحقيق أهدافها، ومنها:

١- مجالات الدراسة

تنقسم مجالات هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام، هي:

أ- المجال الجغرافي

يمثل مركز سمنود مجالا جغرافيا لهذه الدراسة، وهو مركز إداري مصري يقع في محافظة الغربية الواقعة شمال جمهورية مصر العربية في دلتا النيل، والقاعدة الإدارية للمركز هي مدينة سمنود. وتبلغ مساحة أراضيه (١٤٧) كم^{٢} (ويكيبيديا الموسوعة الحرة، سمنود مدينة في مصر)، ويبلغ عدد سكانه (٤٠٥.٢٤٦) نسمة حسب إحصائيات عام ٢٠١٨(الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، ٢٠١٨: ٣٢٨). ويقسم إداريا إلى خمس وحدات محلية قروية، هي: الوحدة المحلية لقرية ميت عساس، الوحدة المحلية لقرية الراهبين، الوحدة المحلية لقرية محلة زياد، الوحدة المحلية لقرية أبو صير بنا، والوحدة المحلية لقرية ميت بدر حلاوة. ويرجع اختيار الباحث لهذا المركز كمجال جغرافي لهذه الدراسة بسبب انتمائه له بحكم المولد والنشأة والإقامة، وباعتباره أحد أبنائه سهل له مهمة الاتصال بالمبحوثين.

ب- المجال البشري

تمثل المجال البشري لهذه الدراسة عن طريق اختيار عينة عشوائية منتظمة Systematic Random Sample تكونت من (٢٠) أسرة بديلة تحتضن كل منها طفلا واحدا على الأقل مجهول النسب وتخضع لإشراف أخصائيو إدارة الأسرة والطفولة بمديرية التضامن الاجتماعي بالغربية وأخصائيو قسم الأسرة والطفولة بالإدارة الاجتماعية بسمنود، وذلك كان بواقع (٢٠%) من إجمالي عدد الأسر البديلة بمجتمع الدراسة والبالغ عددهم (١٠٠) أسرة بديلة وفق البيانات التي حصل عليها الباحث من واقع سجل اجتماعي عام يتضمن البيانات الأولية المعروفة للأسرة والطفل بقسم الأسرة والطفولة بالإدارة الاجتماعية بسمنود لعام ٢٠١٨.

توزيع العينة وفقا لمحل الإقامة ونوع الطفل المحتضن

محل الإقامة	نوع الطفل المحتضن		الإجمالي
	ذكر	أنثى	
مدينة سمنود	٤	٢	٦
الوحدة المحلية لقرية ميت عساس	٢	١	٣
الوحدة المحلية لقرية الراهبين	-	٢	٢
الوحدة المحلية لقرية محلة زياد	٣	١	٤
الوحدة المحلية لقرية أبو صير بنا	-	٢	٢
الوحدة المحلية لقرية ميت بدر حلاوة	٢	١	٣
المجموع	١١	٩	٢٠

ج- المجال الزمني

استغرقت فترة جمع البيانات من عينة الدراسة حوالي شهرين بداية من أول شهر مايو ٢٠٢٠ إلى أول شهر يوليو ٢٠٢٠.

٢- منهج الدراسة وأدواتها

تنطلق هذه الدراسة من حيث تحديد منهجها من حقيقة أساسية هي: أن المنهج العلمي Scientific Method واحد في العلوم الاجتماعية والطبيعية على السواء، من حيث طبيعته وأسسه وخطواته وغاياته، وإن بدا أن هناك اختلافا بين العلوم المختلفة في الممارسات فهو راجع إلى الأساليب والطرق البحثية المختلفة التي توظفها العلوم لتحقيق أسس المنهج والوصول إلى أهداف خطواته، ويرجع اختلاف هذه الأساليب والطرق في بعض الأحيان إلى طبيعة الظواهر التي يركز عليها كل علم من العلوم ومدى وضوحها للباحث أو بعدها وقربها منه ومدى بساطتها أو تعقدها. ويمكننا القول بصورة عامة أن أي دراسة تتخذ ضوابط أو

قواعد منهجية هي دراسة علمية ويكون منهجها هو المنهج العلمي، إذن فإن المنهج المستخدم في هذه الدراسة هو المنهج العلمي بخطواته وقواعده المحددة.

ولما كانت خطوات المنهج واحدة في كل العلوم، فثمة أساليب وأدوات منهجية تساعد على تطبيق هذا المنهج، والآخذ بقواعده. ومن هنا استعان الباحث في هذه الدراسة بالأسلوب الوصفي التحليلي Descriptive and analytical style إذ تتجه هذه الدراسة إلى الوصف الكمي والكيفي لنظام الأسر البديلة بالصورة التي يوجد عليها في رعاية الأطفال مجهولي النسب والتعرف على واقعه وتحليله من أجل الانطلاق به نحو مستقبل منشود. وقد اعتمد الباحث على استمارة الاستبيان Questionnaire في جمع البيانات المتعلقة بالخصائص الاجتماعية والاقتصادية للأسر البديلة وما يواجه هذه الأسر من تحديات وقوفا على مقترحاتهم التي تمكن الأسر البديلة من النجاح في مهمتها، وقد تم اتخاذ بعض الإجراءات المنهجية بهدف تحقيق درجة مناسبة من ثبات وصدق في البيانات التي تتضمنها استمارة الاستبيان، فقد تم اختبار الاستمارة قبل استخدامها، كما تم عرضها على مجموعة من المحكمين من المتخصصين في علم الاجتماع، بالإضافة إلى أنه روعى في تصميمها أن تحقق درجة من الاتساق الداخلي والترتيب المنطقي لبنودها. إلى جانب ذلك اعتمد الباحث في هذه الدراسة على الملاحظات والمقابلات غير المقننة، ويرجع اعتماد الباحث على هذا النوع من المقابلات لأنه يتيح فرصة لتداعي بعض الأفكار والمواقف والخبرات لدى الأسر والتي لا يمكن أن تظهر أثناء تطبيق الأدوات البحثية الأخرى. وتجدر الإشارة إلى أن الأبوين البديلين (أو الأم البديلة في حالة عدم وجود الأب البديل بسبب الطلاق أو الوفاة) في الأسر العشرين محل الدراسة هما المصدر الأساسي الذي استقي منه الباحث بيانات الدراسة الميدانية.

خامسا: نتائج الدراسة

يمكن عرض أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في أربعة أقسام رئيسية على النحو التالي:

١ـ الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للأسر البديلة

سيحاول الباحث فيما يلي التعرف على بعض الخصائص الاجتماعية والاقتصادية لأسر أطفال الدراسة لمعرفة المستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي يعيش في ظله الأطفال المحتضنين مجهولي النسب في مجتمع الدراسة.

أ- فئات الأعمار

توزع أفراد العينة على أربع فئات عمرية، كانت الفئة الأولى (٣٠-) نسبتها (٣,١٠%) ، أما الفئة الثانية (٤٠-) فكانت نسبتها (٥,٦١%)، والفئة الثالثة (٥٠-) فكانت نسبتها (٢٣,١%)، بينما الفئة الرابعة (٦٠ فأكثر) فكانت نسبتها (١,٥%). وهذا التوزيع يتضح منه أن الغالبية العظمى من الأبوين البديلين تراوحت أعمارهم ما بين ٤٠ و٤٩ عام، ومن المعروف أنه عند وصول الإنسان إلى سن الأربعين يكون قد أستقر أُسريا ووظيفيا، واكتسب كما لا بأس به من الخبرة والدراية لبدأ مرحلة جديدة، يكرسها في توفير حاجات أسرته وهموم مجتمعه، كما يصحبها تحول جذري في الأفكار وبعض السلوكيات والتصرفات، وكذلك لبس ثوب الوقار، كما أنه تأتي كل خطواته محسوبة ومتأنية، مدفوعا على كل ما يطرأ في هذه المرحلة من واقع شعوره بالمسؤولية الاجتماعية.

ب- الحالة الاجتماعية

وأما من حيث الحالة الاجتماعية للأبوين في الأسر البديلة، فإن الغالبية العظمى منهم كانوا يعيشون معا، إذ بلغت نسبتهم (٨٠%)، بينما كان الأبوان مطلقين في (١٥%) من الأسر، وكانت الأم أرملة في (٥%) منها. إن الأسرة هي نواة المجتمع، وهي التي تهيئ الفرد ليكون عضو فعال فيه، وتؤثر في عملية تنشئته الاجتماعية. حيث أن استقرار العلاقة الزوجية يؤدي إلى تماسك الأسرة، مما يخلق جوا يساعد على نمو الطفل بطريقة متكاملة. وقد أثبتت الدراسات والأبحاث الاجتماعية والنفسية أن الطفل يتأثر كثيرا بالجو المنزلي وبطبيعة العلاقة التي تجمع أبويه. فإذا كان شاهدا على خلافات عائلية، تظهر لديه قلة شهية وبطء في عملية الهضم ينتجان من شعوره بالحزن، إضافة إلى ظهور بعض المشكلات النفسية. وبينت الأبحاث أيضا أن نزاعات الأبوين يمكن أن تؤدي إلى تباطؤ عملية شفاء الطفل من الأمراض، إذ يتأثر جهازه الدفاعي بالمشاحنات العائلية. في المقابل، أثبتت دراسات نفسية أُخرى أن الأطفال الذين

تربوا في أُسر مستقرة على الصعيد النفسي، والتي يعامِل فيها أفراد الأسرة بعضهم باحترام ومحبة، ينعمون باستقرار صحي ونفسي.

ج- الحالة التعليمية

لقد كشفت معطيات الدراسة عن أن أكبر الفئات حجما بين العينة هي فئة الجامعيين حيث بلغت نسبتها (٧,٦٦%)، وتلاتها مباشرة فئة حملة المؤهلات المتوسطة (دبلومات فنية وثانوية عامة وأزهرية) التي بلغت نسبتها(٣,٣٣%). يؤثر المستوى التعليمي للأبوين في عملية التنشئة، أي على الأساليب التي يستخدمونها في معاملة أبنائهم، فبمستوى تعليمهم يمكنهم توظيف معلوماتهم ومعارفهم في شكل أساليب المعاملة حسب مرحلة النمو التي يسير فيها الطفل. إن ثقافة الأبوين تلعب دورا هاما في تنشئة الطفل، إذ لابد من أن يكونا ملمين بالميادين التربوية الأساسية التي تتعلق بطبيعة المخلوق الذي بصدد رعايته وتكوينه كي تسهل عليهم المهمة. إن تفهم الأبوين لرغبات وأصول أطفالهم يجعل القدرة على الابتكار تنمو لديهم، فعلى قدر الخبرات والتجارب التي يمرا بها في حياتهما، وما تحصلا عليه من تربية وتعليم، والمستوى الثقافي وما يتمتعان به من خصائص نفسية وعقلية واجتماعية تشكل حياة الطفل ونموه العقلي والجسمي والوجداني.

د- المهنة

وبالنسبة إلى مهن الأبوين في الأسر البديلة فإن غالبية الأمهات في هذه الأسر ربات منازل، فيما عدا خمس منهن: اثنتان تعملان معلمتين، واثنتان آخرتان تعملان بالحكم المحلي، وواحدة تعمل طبية. تتأثر نشأة الأطفال بالظروف البيتية خصوصا السنين الأولى من حياتهم، ولتواجد الأم في البيت وحسن رعايتها للطفل الأثر الكبير في السلامة النفسية والجسدية له، لذا كان عمل المرأة خارج المنزل وغيابها لبعض الوقت عن طفلها وإيكال رعايته في الغالب إلى دور الحضانة أثره السلبي على نمو الأطفال ومستقبلهم الشخصي، إلا إن الأمر لا يخلو من بعض الحسنات والإيجابيات المتأتية من عمل المرأة وانعكاس ذلك على الأطفال في ذات الوقت. أما من حيث مهن الآباء فهناك اختلاف كبير، فمنهم من يعمل طبيبا، أو معلما، أو مهندسا، أو عسكريا، أو موظفا حكوميا، أو ما يطلق عليهم في العصر الحديث أصحاب الأعمال أو رجال

أعمال. ولمهن الآباء تأثير كبير على الأبناء، فقد تكون مصدر لتفاخرهم، وقد تكون مصدر لخجلهم وشعورهم بالتعاسة، ومن الطبيعي أن يخف تأثير مهنة الأهل على الأطفال تدريجيا مع نمو الطفل وبنائه لشخصيته المستقلة، بعيدا عن الأهل، حيث تخف تبعيته لأهله وتأثره بهم.

هـ- الدخل الشهري

دخل الأسرة أو الدخل الأسري هو الدخل الإجمالي لجميع الأفراد في أسرة معينة أو الأشخاص الذين يتشاركون في مكان الإقامة، ويشمل ذلك كل شكل من أشكال الدخل، بما في ذلك الرواتب والأجور ودخل التقاعد والتحويلات الحكومية النقدية والمكاسب الاستثمارية، وهو معيار لتحديد مستوى معيشة الأسرة، وبناء على ذلك يتراوح دخل أفراد العينة بين (٢٠٠٠) إلى (٨٠٠٠) جنيه فأكثر، وتمثل فئة الدخل (٦٠٠٠-) أكبر النسب، حيث بلغت نسبتها (٣٥%)، وتلت هذه الفئة من حيث النسبة فئة الدخل (٨٠٠٠ فأكثر)، حيث بلغت نسبتها (٣٠%)، ثم فئة الدخل (٤٠٠٠-)، حيث بلغت نسبتها (٢٠%)، وأخيرا فئة الدخل (٢٠٠٠-)، حيث بلغت نسبتها (١٥%). الأمر الذي يشير إلى الارتفاع الملحوظ في مستوى دخول أفراد العينة بما يفي بمتطلبات معيشة أفراد العينة وتلبية احتياجات أطفالهم الأساسية. ولا ريب في أن توفير أساس مادي هو من الأمور الحيوية في حياة الأسرة، وكثير من حالات الفشل في الأسرة تتم بسبب عدم الاستقرار المادي بسبب انعدام الدخل. ولقد أكدت العديد من الدراسات أن هناك ارتباط إيجابي بين الوضع الاقتصادي والاجتماعي للطفل وبين الفرص التي تقدم لنمو الطفل، والوضع الاقتصادي من أحد العوامل المسئولة عن شخصية الطفل ونموه الاجتماعي.

و- عدد الأبناء

وبتوزيع المبحوثين حسب عدد الأبناء تبين أن أعلى نسبة ليس لديهم أبناء على الإطلاق، حيث بلغت نسبتهم (٦٥%)، وفي المقابل أشارت نسبة (٣٥%) من إجمالي العينة بأنهم لديهم أبناء، فمنهم من لديه ابنا واحدا، ومنهم من لديه اثنين. ومفاد ذلك أن الحرمان من الأطفال ليس الباعث الوحيد للأسرة البديلة لتحتضن طفلا، وإنما الرغبة في كفالة الأيتام، والحصول على الأجر والثواب من الله، تكون دافعا في بعض الحالات. وهذا في حد ذاته مؤشر

جيد على وعي المجتمع ومشاركته في تحمل مسؤولية الأيتام، مقاسمة مع الجهات الرسمية. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن وزارة التضامن الاجتماعي تدعم التوجه نحو تشجيع منظومة الأسر البديلة، التي تتولى تربية الطفل مجهول النسب سواء أكانت أسرة غير منجبة أو لديها أطفال وتتكفل بتربية طفل مجهول النسب وسط أبنائها لينشأ في بيئة طبيعية.

٢- الأسباب التي تدفع الأسر لاحتضان طفل مجهول النسب

لكل من حالات الاحتضان سبب أو دافع لها ولكن الهدف العام من هذا النشاط أو التصرف هو تحقيق نوع من التكافل الاجتماعي ومساعدة هذه الفئة الأضعف في المجتمع للتغلب على ظروفها ومشاكلها وإعطائهم الفرصة ليكونوا أفراد فاعلين في المجتمع على غرار أقرانهم من الأطفال أصحاب الحظ الأفضل، ومن هذه الأسباب أو الدوافع ما يلي:

أ- الحصول على طفل

فبعض الأسر لا تتمكن لظروف معينة من إنجاب طفل بما يدفعهم لاحتضان طفل رضيع من دور الأيتام أو مؤسسات الرعاية الاجتماعية، وهذه الأسر بلغت نسبتها في العينة (٦٠%). وقد أشارت إحدى الأمهات في الأسر البديلة إلى ذلك قائلة: «لدي عشق كبير للأطفال، فدائما كنت أفكر بهم وأحلم أنني سيكون لدي عدد كبير من الأبناء. لهذا سعيت كثيرا في أن أنجب أطفال ولكن لم يفلح الأمر. وبعد مرور سنوات من المحاولات المستمرة والتي فشلت جميعها في حل مشاكل الإنجاب لدي، بدأت فكرة احتضان طفل يتيم تراودني. ولكن كان من الصعب أن اتخذ قرار حاسم أو واضح بها. فلم أكن سمعت يوما عن قصة لأسرة أو شخص ما معلنة في مصر عن أنهم احتضنوا طفل. لذلك لم يكن لدي أي معلومة متوفرة سواء عن الإجراءات أو كيف يسير الأمر. كان لدي تقبل للفكرة بشكل كبير، فكل ما أرغب به هو تربية طفل وأشعر بأنني أم. وليس فارق معي أن يكون ابني عن طريق الإنجاب أو بالاحتضان. بالإضافة إلى أنني طوال حياتي كنت مقتنعة بفكرة الاحتضان ولكن لم أتخيل يوما أنها ستمنحني نفس شعور الأمومة النابع من الحمل والإنجاب. في الحقيقة لم أعاني قط في إقناع زوجي "محمد" بفكرة الاحتضان، فهو منذ أن التقينا وهو يعلم حبي الكبير للأطفال ورغبتي في تحقيق حلم الأمومة. لذلك كان يحمسني ويشجعني على احتضان طفل. كما أنه منذ اليوم الأول

وهو يحب ابننا "مصطفى" بشكل كبير وهم مترابطان جدا». يتسم الأزواج الذين يتمتعون بالصحة النفسية والانفعالية بالعديد من الصفات التي تجعلهم يحافظون على الإيجابية، والمرونة، والتفاؤل في الحياة، والتوافق الزواجي والنفسي والاجتماعي مع الأوضاع الحياتية الضاغطة أو الخارجة عن سيطرتهم. وتتجلى هذه السمات لدى الأزواج الذين يحرمون من القدرة على الإنجاب، فيتقدمون نحو مسار صحي يتضمن سعيهم لتحقيق حلم الأبوة والأمومة من خلال تعهد طفل من الأطفال المحرومين من الرعاية الأبوية، وتربيته وتنشئته تنشئة صالحة؛ أنهم يتخذون سبيلا في الحياة يتيح لهم الاستمرار في العطاء، والإنتاج، والرضا. كما يقدمون للآخرين في مجتمعهم نموذجا ومثلا يحتذى به في حل المشكلات الحياتية بطريقة بناءة وهادفة. وعليه فإن هؤلاء الأزواج يمكنهم الاسهام في تخفيف حالة الحرمان التي يعيشها الطفل فاقد الرعاية الأسرية، والتخفيف من الضغوط الواقعة على مؤسسات الرعاية الاجتماعية من خلال رعاية الطفل داخل أسرة بديلة عن أسرته الطبيعية.

ب- فعل الخير

وهذا النوع من الدوافع يعتبر مرتبط بثقافة المجتمع وبأخلاق وقيم الفرد الذي يتخذ القرار بأن يحتضن طفلا يتيما، وسببه في ذلك بعيد عن تحقيق مكسب أو مصلحة ما وإنما فقط لفعل الخير وإرضاء الضمير. وتلجأ بعض الأسر إلى كفالة اليتيم إيمانا منها بأن الإحسان إلى الأيتام قربة من أعظم القربات ونوعا عظيما من البر لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (سورة البقرة، آية ١٧٧). وهذه الأسر بلغت نسبتها في العينة (٢٠%). وفي هذا الصدد، يقول أحد الآباء في الأسر البديلة: «أن كفالة الأيتام لها أجر عظيم عند الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ»، مستشهدا بقول الله تعالى: ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٢٠). وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة، آية ٢١٥). كما استشهد ببعض من الأحاديث النبوية، قائلا: «عن سهل بن سعد رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا وكافلُ الْيتِيمِ في الجنَّةِ هَكَذَا" وأَشَار بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وفَرَّجَ بَيْنَهُمَا) (رواه البخاري). وكذلك قول الرسول ﷺ: (مَنْ مَسَحَ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إلاَّ لِلَّهِ كَانَ لَهُ فِي كُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ") (رواه أحمد)». لقد قدمت التربية الإسلامية نظاما ومنهجا متكاملا لرعاية اليتامى/ فاقدي الرعاية الأسرية من جميع الجوانب: النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والخلقية، ولم يدع النظام الإسلامي كبيرة ولا صغيرة إلا أوضحها للإنسان القائم على رعاية هؤلاء اليتامى، وذلك من أجل تحقيق السعادة لهم في الدنيا والآخرة، وتنشئتهم النشأة الصالحة ليسهموا في بناء الوطن، والذود عنه، والمشاركة الفعالة في عمارة الأرض، وليكونوا خلفاء فيها تستقيم بجهودهم وأفكارهم حياة الآخرين.

ج- عدم القدرة على انجاب طفل آخر

بعد إنجاب الطفل الأول، قد ترغب المرأة في إنجاب طفل آخر، وتجد صعوبة في هذا الأمر، على الرغم من حدوث الحمل في الطفل الأول بسهولة، ونجد أن هناك بعض الأسر تلجأ إلى الاحتضان بسبب عدم قدرتها على إنجاب المزيد من الأبناء، وهذه الأسر بلغت نسبتها في العينة (١٥%)، وذلك كما حصل مثلا مع "أم سعيد" حيث تمثل تجربة من نوع آخر، فهي أم لطفل واحد، وبعد التحاقه بالمدرسة، أثبتت التقارير الطبية عدم قدرتها على الإنجاب مرة أخرى، حيث دفعها حبها الشديد للأطفال لاحتضان "مي"، التي تبلغ حاليا عشرة أعوام، حيث أكدت "أم سعيد" أنها وزوجها تعمدا اختيار طفلة عمرها شهرين فقط، حتى تتشكل مشاعرها معهما منذ الصغر.

د- الصدفة

وهنا يروي لنا أب يحتضن طفلا مجهول الأبوين قصة عثوره عليه وسبب احتضانه له، وكيف لعبت الصدفة دورا في ذلك قائلا: إن زوجته عثرت على طفل رضيع ملقى بالقرب من منزلهما، حيث أصيب كلاهما بصدمة، كونهما لم يتوقعا أن يكون ما يشاهدانه في الأفلام والمسلسلات يحدث حقيقة في الواقع. وأضاف أن زوجته أصرت على الاحتفاظ بالطفل، وكانت

رافضة بشكل قاطع تسليمه للجهات المسؤولة، خشية حرمانها منه، خصوصا أنهما لم يرزقا بأبناء، وكان هو وزوجته دائمي الدعاء بأن يمن الله سبحانه وتعالى عليهما بالذرية. وتابع: «اعتبرنا العثور على الطفل هدية من الله عز وجل، وقدمنا الرعاية والاهتمام له، كما لو كان ابنا من صلبي، لكن ما كان يؤرق حياتنا هو عدم حصول الطفل على الأوراق الثبوتية». ولفت الأب إلى أنه عمل على إقناع زوجته بأهمية تسليم الطفل للإدارة الاجتماعية، للحصول على وثائق رسمية له، تمكنه من الحصول على التعليم والصحة وغيرها من الخدمات. وأوضح أنه وجد تعاونا وتجاوبا من الإدارة الاجتماعية، مشيرا إلى أن الإدارة الاجتماعية اتخذت إجراءات فور إبلاغها بوجود الطفل، حيث تم تصوير الطفل وأخذ بيانات الأبوين، وقيام لجنة من الإدارة الاجتماعية بزيارة مسكن العائلة، للتأكد من مدى ملاءمة المكان للعيش. وأقر الأب بأن سبب تأخرهم في البلاغ عن الطفل هو غياب التوعية بمثل هذه الأمور، التي تعتبر حساسة في المجتمع، مطالبا بأن يتم عمل مزيد من التوعية للأسر التي تحتضن أطفالا غير مبلغ عنهم للجهات المختصة حتى تطمئن، وأن الغرض من البلاغ هو فقط ضمان حق الطفل بالحصول على الحياة الكريمة، وإصدار الأوراق الثبوتية له، لضمان حقه في التعليم والصحة وغيرها من الأمور. هذا ولم ينطبق سبب الصدفة إلا على فئة قليلة جدا من الأسر لا تتعدى نسبتها في العينة (٥%).

٣- المشكلات التي تواجه الأسر البديلة في رعاية الأطفال مجهولي النسب

إن هناك عدة تحديات أو مشكلات يحتمل أن تواجهها الأسر البديلة في رعايتها للأطفال مجهولي النسب في مجتمع الدراسة، ألا وهي:

أ- نظرة الأقارب والمجتمع لفكرة احتضان طفل مجهول النسب

يواجه الأبوان البديلان مشكلة تلحق أضرارا نفسية واجتماعية بهما، وهي الاتجاهات والمعتقدات السلبية التي يحملها الأقارب والجيران وأفراد المجتمع التي تتعلق بالطفل المحتضن وهويته والحديث عن أصله، وكذلك مدى تقبل أقاربهم والمجتمع بوجود هذا الطفل معهم، وما يتبع ذلك من سلوكيات وتصرفات قد تجرح مشاعرهم كآباء وأمهات، أو تؤذي طفلهم. وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية أن نسبة

(٦٠%) من الأسر في عينة الدراسة تعرضوا للعديد من التعليقات والكثير من التساؤلات الشخصية والجارحة والقاسية من المحيطين المقربين وحتى الأشخاص الغرباء المتعلقة بالطفل وهويته ودرجة المغامرة في اتخاذ هذا القرار.

إن أسئلة من مثل: «كم كلفتك المسألة؟ وكيف تخلت عنه أمه؟ وهل تعرفون أصله؟ وهل تأكدتم أن المعلومات عنه حقيقية؟» هذه التساؤلات قد لا يمكن تجنبها أو الوقاية منها، إلا بالاستعداد لمواجهتها، والترحيب بها من جانب الأبوين، وعدم التعامل معها بحساسية مفرطة. ويمكن التدرب على كيفية مواجهتها أو طلب المساعدة من المرشدين النفسيين والمتخصصين.

وتعبر إحدى النساء المتكفلات بطفل مجهول النسب عن رضاها وسعادتها بوجود طفل لها يملأ عليها البيت، وتعتني به هي وزوجها، ويكبر يوما بعد يوم أمام ناظريها، مشيرة إلى أنها لا تكترث لأحاديث الناس وتساؤلاتهم التي تنتهي عن ماهية هذا الطفل وأصله وفصله، ومصيره النهائي.

وبإمكانك كأب أن تواجه مثل هذه المواقف مع الأهل والجيران من خلال (بنات، ٢٠١٣: ٣٩):

- توضيح أن هذا قرارك أنت وزوجتك، وأن عليهم احترام هذا القرار.
- إعلان أن هذا الطفل قد أصبح يخصك ويعنيك، وعليهم معرفة ذلك وتقبله.
- التأكيد على أن هذا القرار يجعلك تشعر بسعادة وراحة.
- إن احتضانك لطفلك هو رغبتك ورغبة زوجتك، وأن عليهم مراعاة ذلك.

وفي مقابل ذلك أشارت (٤٠%) إلى أنهم لم يتعرضوا قط لأيا من التعليقات أو التساؤلات المتعلقة بالطفل وهويته من المحيطين بهم، بل بالعكس تماما تقبل المحيطون بهم لفكرة احتضان طفل يتيم وقدموا الدعم والمساندة لهم، وذلك على حد قولهم. وقصة "نادية" وابنتها المحتضنة "سامية" تبين ذلك، حيث تأكدت "نادية" وهي في نهاية العقد الثالث من عمرها من أنها لن تكون قادرة على الإنجاب، بعد أن علمت أن زوجها عقيم. لم يكن خيار الانفصال عن زوجها مطروحا؛ فقررت أن احتضان طفل هو الخيار الأفضل، ولكن "نادية" –

السيدة المنقبة- لم تتقبل فكرة وجود طفلة غريبة عن زوجها تكبر وتترعرع في كنفه، ولأن رغبتها الأساسية في الإنجاب كانت من أجل فتاة وليس صبي، فلجأت إلى أحد شيوخ الأزهر لتسأله عن حل لهذا الأمر، حتى تحتضن طفلة رضيعة. الشرط الأول الذي أخبرها به الشيخ هو ضرورة عدم تغيير اسم الطفلة حتى لا تختلط الانساب، والشرط الثاني هو أن تتحول تلك الطفلة الرضيعة من غريبة عن الأب لقريبة له، وهذا عن طريق إرضاع أحد أقارب الأب للطفلة. تقول "نادية": «لقد كنت محظوظة»، لأنه في نفس الوقت الذي سعت فيه "نادية" لاحتضان طفلة، كان شقيق زوجها قد أنجب طفلا لتوه، ولذلك تحولت زوجة شقيق الأخ إلى مرضعة للطفلة المحتضنة، وبذلك لم يعد هذا الأب بالاحتضان غريبا عنها، بل اصبح في مقام العم لها.

تتعدد الاستراتيجيات المتبعة لتكيف الأسر مع كفالة اليتيم، ومن أهمها: كفالة الأطفال الرضع، وإرضاع الأم القادرة على الإنجاب للطفل المحتضن أو أن تقوم إحدى قريبات الأسرة التي تكون صلتها بالأسرة قرابة من الدرجة الأولى بإرضاع الطفل المحتضن. وبخصوص ذلك تم سؤال الأمهات في الأسر البديلة عن الاستراتيجيات التي استخدمتها الأسر للتكيف مع كفالة اليتيم، واتضح أن أبرز هذه الاستراتيجيات هي محاولة إرضاع الطفل رضاعة شرعية تتحقق بها المحرمية فور أخذه وقبل تجاوزه سن الرضاعة وهي السنتين من عمره، ويكون الإرضاع أكثر من خمس مرات من أخت الزوجة أو الزوجة أو قريبة يأخذ بالرضاع منها المحرمية. وتجدر الإشارة إلى «أن هناك إجراءات طبية وحقن معينة من أجل إعطاء هرمون للأم التي لم تنجب لإدرار الحليب لترضع الطفل المحتضن، وبذلك يصبح ابنها بالرضاعة بعد خمس رضعات بحسب فتوى شرعية» (الملتقى الفقهي، ٢٠٠٣/٢/٩)، وبالتالي يصبح ابن هذه العائلة بشكل شرعي. إن الرضاعة هنا ليست مجرد علاقة عارضة بين الطفل الراضع والأسرة المرضعة (الحاضنة أو البديلة)؛ وإنما يترتب عليها علاقة تنسحب على مستقبل الطفل بأكمله. إذ يندمج الطفل في الأسرة، فيصبح ابنا من الرضاع للأم المرضعة وزوجها، وأخا لأبنائها، لا يحل الزواج بينه وبينهما.

إن أكثر المشكلات التي تواجه الأسر التي كفلت يتيم، وقامت بتربيته هي مشكلة تحريم بقاء الطفل وسط الأسرة التي تضم أبناء مختلفين في الجنس سواء بنين أو بنات بعد سن

البلوغ، وما بين الروابط العاطفية والإنسانية والنفسية التي تنشأ بين الأسرة والطفل المحتضن، ينشأ صراع لا يدفع ثمنه إلا الطفل الذي يواجه مشكلة ضرورة ابتعاده عن الأسرة التي ربته ورعته سنوات طويلة، وينطبق ذلك الأمر أيضا على البنت حيث يصبح وجودها في البيت بعد سن البلوغ محرما مادام هناك رجل؛ سواء كان زوج السيدة التي ربتها والذي يكون في مقام الأب بالنسبة لها، أو الأبن الذي ربيت معه، وكان لها بمثابة الأخ. الشرع هو الشرع، والقانون لا يعترف إلا ما قد شرع الله، فقد باتت الأزمة بلا حل لسنوات طويلة تؤرق الأسر والأطفال فلم يكن هذا الأمر في حسبانهم وهم صغار، ولكنهم سرعان ما يصدمون به عند سن البلوغ، ولم ينجو من هذه الأزمة إلا من كان ابنا لهذه الأسرة بالرضاع؛ ليصبح في حكم الابن الشرعي للأسرة، ويصبح محرما له ما يحرمه النسب، فلا يجوز له الزواج من إحدى أخواته، كما يسمح به بما يسمح الشرع للأبناء والأقارب على زينة أهل البيت (الصومالي، ٢٠١٧: ٢٧٧).

ب- قضايا تتعلق بإخبار الطفل المحتضن بحقيقة وضعه

أصيب الطفل "مؤيد" بحالة من الانطواء والعزلة لمعرفته بانه طفل محتضن بعد أن وصل لعمر العاشرة، واكتشف هذه الحقيقة في عمر متأخر عندما سأله أحد زملائه بالمدرسة عن عدم كتابة اسم عائلته على كتبه المدرسية وعلى بطاقات أعياد ميلاده التي كان من خلالها يدعو أصدقاءه لمشاركته الاحتفال بعيد ميلاده. واصراره على اكتشاف الحقيقية وتساؤلاته المستمرة عن عدم إلحاق اسم الأسرة التي يعيش بها مع اسمه دفعت بأسرته التي عاش معها منذ أن كان عمره ثلاثة شهور بأخباره بأنه طفل محتضن. فمن أين أتيت؟ ومن هما والداي الحقيقيان؟ ولماذا تركوني؟ هي أسئلة واجهها والد "مؤيد" ووالدته اللذان لم يرغبا بإخباره الحقيقة خوفا على مشاعره. فمن اللحظة التي قاما باحتضانه وهو لا يزال حديث الولادة قررا اخفاء هذا الأمر عنه متناسين أن هذا الطفل سيكبر يوما ما وسيلاحظ انه لا يستطيع كتابة اسم أسرته الجديدة على كتبه المدرسية ولا على وثائقه الرسمية في أي يوم ما.

قصة "مؤيد" قد تتكرر مع أسر كثيرة اختارت خيار الاحتضان بعد أن فقدت الأمل في الإنجاب، واختارت أيضا أن تخفي هذه الحقيقة على أطفالها المحتضنين؛ ليكبروا ويصلوا

لمراحل عمرية يصعب بها تقبل هذا الأمر، إضافة إلى الآثار النفسية السلبية التي يمكن أن تؤثر عليهم نتيجة معرفتهم الحقيقة.

وفي المقابل اختارت "أم كريم" أن تكون صريحة مع طفلها، حيث أشارت بأنها بدأت بإخبار "كريم" عن أنه طفل محتضن بشكل تدريجي منذ أن كان عمره أربع سنوات من خلال قراءة القصص له ومحاولة ربطها بحاله. مشيرة إلى أنها كانت تعيد عليه قصة "طرزان" الطفل الذي كان يعيش بالغابة وربته "الغوريلا". وأضافت: «أن "كريم" بدأ يتقبل وضعه تدريجيا». وبينت "أم كريم" أن اطلاع الطفل على حقيقة وضعه في عمر مبكر يساعد كثيرا حتى أنه يبدأ بربط وضعه بالآخرين، وبما يشاهده بالتلفاز. لافته إلى أن طفلها كان يشاهد فيلما عن حيوان ضاع بالغابة؛ فبادر بطفولة بريئة بمطالبة هذا الحيوان الصغير بالبحث عمن يعتني به ويحرص على رعايته وتربيته. وأكدت "أم كريم" أن القصص والأفلام التعبيرية تساعد الأطفال على تقبل أوضاعهم، لأنها اللغة التي يستطيعون فهمها.

مصارحة الطفل المحتضن هي أصعب وقفة مع الذات، ولكن يجب فعل ذلك لتحقيق الاستقرار العائلي فيما بعد، وإخباره في عمر صغير بذلك، سيجعله يتقبل وضعه ويتفهمه دون نقمة أو غضب، ويفضل أن تستعين الأسرة بمختصين لكشف تلك المعلومة له، أو أن تصارحه أمه البديلة بذلك بشكل ودي.

وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية أن نسبة (٦٥%) من الأسر في عينة الدراسة صارحت أطفالها المحتضنين وأخبرتهم بحقيقة وضعهم. في مقابل (٣٥%) حرصت على إخفاء حقيقة وضع الأطفال المحتضنين عنهم منذ احتضان هذه الأسر لهم. وبخصوص الأسر التي حرصت على إخفاء الحقيقة عن أطفالهم المحتضنين تم سؤال الأبوين البديلين في هذه الأسر عن الأسباب التي جعلتهم يحرصون على ذلك، واتضح أن نسبة (٨,٤٢%) منهم يرون أن عدم إيذاء مشاعر هذا الطفل كان هو السبب وراء ذلك، بينما أشار (٦,٢٨%) أن السبب وراء ذلك كان من شدة حبهم للطفل وتعلقهم به، أما الذين فعلوا ذلك اعتقادا منهم بأن الطفل إذا عرف الحقيقة فسوف ينفر من أسرته البديلة ولا يعود يتقبلها فقد بلغت نسبتهم مثل النسبة السابقة بالضبط. وأكدت إحدى الأمهات في الأسر البديلة أنها لن

تبلغ الطفلة في الوقت الحالي بأنها ليست أمها الحقيقية تجنبا لأي ردات فعل أو تبعات نفسية، واجتماعية من المحتمل أن تتعرض لها الطفلة بعد معرفتها بحقيقة أمرها. أما "أم رامي" فلم تجد وسيلة لإخبار طفلها البالغ من العمر ست سنوات بأنه طفل محتضن تماشيا مع توجيهات الإدارة الاجتماعية بأهمية اطلاع الأطفال المحتضنين بذلك في سنوات أعمارهم الأولى وقبل دخولهم مرحلة المراهقة؛ ففي كل مرة تلملم "أم رامي" قواها النفسية وتحاول أن تجلس مع "رامي" لإبلاغه بأنه طفل محتضن بعد أن تكون قد رسمت في خيالها صورة مبسطة لذلك تتناسب مع عمره وتفكيره تعود عن قرارها بعد أن تنظر إلى وجهة وتراقب حركاته وهو يلعب بجانبها ويناديها «ماما»، فتشعر بالحزن عليه؛ فكيف سيستقبل فكرة أنها ليست أمه التي أنجبته وهو يرى الحياة من خلالها؟ وتتعقد المشكلة أكثر وأكثر في حالة إذا ما أوحت واحدة من هذه الأسر للطفل الذي احتضنته بأنها أسرته الحقيقية، ويكتشف بعد ذلك الخداع الذي مارسته عليه.

تواجه العديد من الأسر البديلة هذه المعضلة في التعامل مع أطفالها؛ فبين خوفهم على مشاعرهم وتأثرهم بالحقيقة التي يمكن أن تشكل صدمة نفسية عليهم وبين أهمية اطلاعهم على الحقيقة قبل وصولهم لعمر معين يزداد الأمر تعقيدا، فتختار أسر عديدة إبقاء الأمر في طي الكتمان بالرغم من صعوبة ذلك في ظل إجراءات قانونية لا تسمح بكتابة المحتضن في الأوراق الرسمية باسم حاضنه.

لا شك أن قرار إخبار الطفل ليس بالقرار السهل لا على الطفل ولا على أسرته البديلة، ولا ينكر أحد أنه من أقسى القرارات على الإطلاق، لأنه يتعلق بشكل مباشر بهوية الشخص، وتكوينه وانتماءاته وكينونته، وتذهب الكثير من الآراء إلى تفضيل إخبار الطفل بكونه تم احتضانه، ولم تلده أمه، وأن أبيه ليس هو ذلك الأب الذى يعرفه، وهو في سن النضج، ويذهب آخرون إلى الرأي القائل بأن هذا الطفل يجب أن يعرف طبيعة انتسابه للعائلة منذ نعومة أظافره ومنذ لحظة احتضانه.

وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية أن أكثر من ثلاثة أرباع الأسر التي اختارت مصارحة أطفالها المحتضنين بحقيقة وضعهم قد واجهت

صعوبة تتعلق بعملية الإخبار بالأسلوب الملائم والصحيح، حيث أشار (٩,٧٦%) منهم إلى ذلك، وبسؤال هذه الفئة من الأسر عن أبرز ردود الأفعال التي واجهتهم من قبل أطفالهم المحتضنين في عملية الإخبار، أشار نصفهم إلى شعور الطفل المحتضن بالصدمة لسماعه الخبر، بينما أشار (٣٠%) إلى شعور الطفل المحتضن بالغضب من الأمر، وكذلك ممن حوله، أما الذين أشاروا إلى تشكيك الطفل المحتضن في ذلك، وإنكاره هذا الأمر فقد بلغوا (٢٠%). وتقول إحدى الأمهات في الأسر البديلة: «بعد أن كبر الطفل حاولنا إخباره بوضعه وبدأنا تدريجيا خوفا من تأثره، ولكن كنا نقدر أننا مهما حاولنا إخفاء الموضوع عنه سيأتي يوم من الأيام ونندم على ذلك. ولا أنسى لحظة إخباره كيف تغيرت ملامحه وأدركنا أنه غضب من الوضع لكن لم يستمر على الوضع عشرة أيام تقريبا ليعود بعدها إلى وضعه الطبيعي، وكأن شيئا لم يحدث بعد إخباره أننا لن نتخلى عنه وهو جزء منا ولن تتغير معاملتنا له وأدرك ذلك بنفسه فعلا». وتقول أم بديلة أخرى: «عندما بلغت الطفلة الرابعة من عمرها وكانت على مشارف الروضة، انتابني شعور بالخوف وتزاحمت الأفكار والخيارات بعقلي، هل أصارحها بحقيقة أنها طفلة محتضنة أم أخفيها عنها؟، رغبت بمصارحتها لكني لم أعلم كيف. وتلك "الكيف" أبقتني مترددة حتى بلغت العاشرة من عمرها، وكانت تلك أصعب فترات حياتي». بتلك الكلمات والوصف عبرت "أم عبير" عن تجربتها مع طفلتها المحتضنة التي لم تصل لخيار اخبارها بحقيقة وجودها معها إلا عند بلوغها العاشرة؛ لتتعرض لفترة صعبة مع أبنتها المحتضنة كونها لم تتقبل بداية هذا الأمر، واحتاجت لفترة طويلة لتقبله، لتكتشف والدتها بأن خيار اطلاعها على الحقيقة كان يجب أن يكون مبكرا. أما "أم عائشة" فلم تجد مخرجا من البدء بإخبار "عائشة" عن أنها طفلة محتضنة تدريجيا، مما أصاب "عائشة" باضطرابات نفسية كونها رفضت هذه الحقيقة، واعتبرت أن كونها طفلة محتضنة يعني أنها طفلة ضائعة وأن أبويها البيولوجيين لم يرغبا بالاحتفاظ بها. وخضعت "عائشة" برفقة أبويها اللذين احتضاناها إلى جلسات نفسية إرشادية من قبل أخصائيين لمساعدتها على تقبل هذه الفكرة التي تقوم على أن أسرتها الجديدة هي التي تحبها، وأن احتضانها لا يعني بأي حال من الأحوال أنها طفلة غير مرغوب بها؛ بل أنها أسهمت في إدخال الفرح لحياة أبويها.

ومن الجدير بالذكر أن حالة الطفل المحتضن قد تسوء وتتدهور بعد علمه بالخبر وتتحول إلى مشكلات متنوعة، منها ما له علاقة بنموه بوصفه طفلا، ومنها ما هو متعلق بهويته الخاصة باعتباره فردا يعيش في أسرة بديلة. وبسؤال المبحوثين الذين واجهتهم صعوبة في عملية الإخبار لمعرفة طبيعة هذه المشكلات، أشار (٤٠%) منهم إلى شعور الطفل المحتضن بالخوف وذلك بسبب المجهول الذي يبقى عامل ضغط في حياة المحتضن الذي يبحث على الدوام عن والديه وأسرته، ومن أين ولماذا هو هنا وغيرها. بينما أشار (٣٠%) إلى شعور الطفل المحتضن بالوحدة حين يدرك أنه مختلف عن أقرانه من ناحية أصل الأسرة. أما الذين أشاروا إلى شعور الطفل المحتضن بالحزن نتيجة فقدان الوالدين الأصليين فقد بلغوا (٢٠%). وأخيرا فقد أشار (١٠%) إلى شعور الطفل بالذنب نتيجة للحرمان المفترض لديه من غياب الأسرة الأصلية، واعتقاده أن هناك ما يدعو ويبرر ما اختبره الحاضن من آلام. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن الباحث قد لاحظ عن طريق مراقبة سلوك هؤلاء الأطفال الذين ساءت وتدهورت حالتهم بعد علمهم بالخبر أنهم يتسمون بانغلاقهم الكامل على الذات والابتعاد عن الواقع والانطواء والعزلة وعدم التجاوب مع المثيرات التي تحيط بهم، وهو ما يعرف باضطراب الذاتيوية الطفلية Early Infantile Autism أو التوحد.

ويعد كانر Kanner أول من وضع تعريفا للتوحد إذ أنه حصر معيار التوحد في صورتين أساسيتين، هما: الوحدة المفرطة والرتابة؛ ويقصد بالوحدة المفرطة العيش بخياله وتصوره وتفاعله مع نفسه واللعب بدون اندماج مع الغير من أقرانه الأطفال، أما الرتابة فتعني الروتين والنمطية في السلوك (الخفاف، ٢٠١٠: ٤٠٨ – ٤٠٩).

لا تقف مشكلات الأطفال مجهولي النسب عند عدم معرفتهم لآبائهم وأمهاتهم وعائلاتهم، بل تزداد عندما يكبرون ويحاولون معرفة الحقيقة ويطرحون الكثير من الأسئلة عن الأسباب التي جعلتهم مختلفين تماما عن أقرانهم الذين يعيشون في وسط عائلي واجتماعي عادي. وبجانب ذلك يحملون وزر غيرهم وتلاحقهم طوال حياتهم وصمة العار وألقاب، مثل لقيط وغيرها، وبالرغم مما يبديه المجتمع من تطور وحداثة إلا أن النظرة والتعامل مع هذه الفئة يبدوان غير قابلين للتغيير في غياب إجراءات رسمية توجه الرأي العام نحو قبول هذه الفئة دون تمييز.

الارتباط الآمن secure attachment للطفل بأبويه هو الكلمة السحرية في صحة الطفل النفسية والعاطفية، فالأطفال ذوو الروابط القوية مع الأبوين يحملون في داخلهم احتراما أعلى لذواتهم، وأداء أفضل في مدارسهم، وعلاقات إيجابية مع رفقائهم، وإدارة أفضل لتوتراتهم. اتفقنا سابقا على أن التعلق عملية مهمة جدا ولها آثارها على نمو الطفل على المدى البعيد، أي يظهر تبعاته مستقبلا في تعاملات الطفل المختلفة مع الآخرين، فإذا لم ينجح الطفل في تكوين علاقة انفعالية اجتماعية وثيقة مع أمه أو الحاضن، فسوف يستحيل عليه أن يكون الثقة والأمان اللازمين للنمو السوي في المراحل التالية من مراحل نموه. في العادة يخف سلوك التعلق لدى الطفل عندما يبدأ في استكشاف البيئة المحيطة به من ناحية، والتفاعل الاجتماعي مع الآخرين من ناحية أخرى، وليصل الطفل لهذه المرحلة من التفاعل يجب أن يشعر دائما أنه محبوب وأن أمه لن تتخلى عنه وستتواجد بجانبه في أي وقت (الثقة في وجودها بجانبه) عندها يحصل الطفل على العلاقة الآمنة التي ستمكنه من العبور من هذه المرحلة الفاصلة في حياته بأمان.

عليك كأب/ كأم أن تعلم أن مفهوم الذات يتشكل من خبرات النجاح والفشل التي يمر بها الطفل منذ الطفولة المبكرة، ومن ردات فعل الآخرين المهمين، مثل: الوالدين، والمعلمين لهذا الطفل. فالنجاح، والتعزيز، والتقبل ينمي مفهوم ذات إيجابية، والفشل والعقاب، أو التجاهل من جانب الأهل ينمي مفهوم ذات سلبية (عامر، ٢٠١٨: ٧٢ – ٧٣).

ومن ناحية أخرى فقد أشارت (١,٢٣%) من الأسر التي صارحت أطفالها بحقيقة وجودهم معهم أنهم لم يواجهوا صعوبة في مسألة إخبار أطفالهم المحتضنين بحقيقة وضعهم، وأرجعوا ذلك إلى التبكير بإخبار الطفل المحتضن بأصوله مع مصارحته عبر تقديم الأجوبة المناسبة عن أسئلة الطفل، مع تحري الصدق بدل النزوع إلى الكذب والإيهام. إحدى الأمهات التي قامت باحتضان طفل وهو لا يزال حديث الولادة اختارت وبناء على توجيهات الإدارة الاجتماعية بإخبار طفلها عندما بلغ من العمر أربع سنوات تدريجيا مستخدمة أسلوب القصص. وقد أخبرت طفلها بأن أبويه توفيا ولم يتخلوا عنه، لكن بعد وفاتهما أنتقل للعيش معها ومع أبيه بالاحتضان. لم يكن وقع الخبر عليه سهلا؛ فرد الفعل الأول له أنه بدأ بالبكاء، تلاه أسئلة عديدة عن أبويه الحقيقيين وكيف وأين غادروا الحياة، إلى مشاعر الحب الكبيرة التي تولدت

لديه اتجاهما وهو لم يعرفهما، إلى رغبة بالالتقاء بهما في الجنة. دور الأم كان كبيرا تجاه طفلها المحتضن لأنها تحبه كثيرا، لم تغضب من أسئلته بل حاولت قدر الإمكان الإجابة عليها، لأنها تتفهم ما يدور في عقل الطفل الذي بدا أيضا يشعر بالخوف من مصير الموت. الطفل يعيش اليوم حياة طبيعية في أسرة تمنحه كل الحب والعطف والحنان، هو لم ينسى أنه طفل محتضن يطرح أسئلة عديدة بين فترة وأخرى عن أبويه الحقيقيين، يحاول أن يجد إجابات لكن ليس هناك إجابات سوى التي قدمتها أسرته له. لأن الأسرة البديلة لا تملك هي أيضا معلومات عن أسرة الطفل البيولوجية؛ فالهدف ليس معرفة الماضي بكل تفاصيله بقدر ما هو توفير بيئة أسرية مناسبة للطفل الذي لم يتمكن من العيش بأسرته وبين أبويه الحقيقيين.

وهنا وبعد أن يتقبل الطفل هذا الأمر، فإنه يتقدم نحو التكيف مع وضعه، وأن يصبح قادرا على تقبل ذاته، وأسرته، والسعي نحو إيجاد مكان له في مجتمعه. وهنا يأتي دور الأبوين من خلال (بنات، ٢٠١٣: ٤٨؛ Dabbeni, 2008):

- توفير بيئة آمنة وداعمة لهذا الابن.
- محاولة تشجيعه على أن يكون الإنسان الذي يريد أن يكون سعيدا في حياته، ومنجزا في مدرسته، ومفيدا لمجتمعه.
- تعاطفهم مع مشاعره تجاه ما عرفه من معلومات حول وضعه وقبولهم لهذه المشاعر، وعدم استنكارها عليه، أو منه، فهو لا يقصد الإساءة لهم بمشاعره أو كلماته.
- توثيق الصلة مع مدرسته من أجل أن يحقق ابنهم أداءً أكاديميا جيدا، وعلاقات إيجابية في المدرسة مع المعلمين والطلبة، واضعين المدرسة بتصور كامل حول وضع ابنهم، وذلك من أجل تعاون المدرسة معهم بما يساعد في تمتع ابنهم بصحة نفسية طيبة.
- تهيئة الأقارب والجيران من أجل التعامل مع ابنهم بطريقة طبيعية دون إساءة.

ويبقى الطفل المحتضن الذي لم ير بحياته سوى وجهي أبويه اللذين احتضناه بحاجة لأن يدرك الحقيقة في عمر صغير قبل أن يصل لمرحلة المراهقة، فيرفض حياته الجديدة ويبدأ

بالتمرد على أبويه؛ ليخسر الفرح والطمأنينة في حياته التي لم يجدهما سوى في أسرته البديلة.

ومن وجهة نظر الباحث فإن إنجاز مهمة إخبار الطفل المحتضن بحقيقة وضعه بنجاح تتوقف على ثلاثة عوامل أساسية، هي:

■ عمر الطفل عند إخباره

يمكن إخبار الطفل بحقيقة وضعه في عمر الرابعة –وهو عمر دخول الروضة- وهذا من أجل مراعاة البعد النفسي للطفل، وخاصة أن الطفل سيواجه موضوع اختلاف اسمه الكامل عن اسم أبوه، والذي قد يخلق له بعضا من الصعوبات، والمشكلات، خصوصا عندما يصطدم الطفل بهذا الأمر للمرة الأولى. من هنا يمكن اعتبار عمر الرابعة عمرا يمكن أن يكون مناسبا، ولكن يشترط في ذلك أن يكون الطفل قادرا على إدراك، ووعي ما يتم قوله له، ويقدر هذا الأمر أبوا الطفل، فهما الأقدر على توقع درجة استيعابه في ضوء قدراته العقلية، وخبرتهما معه، وهذا يتباين من طفل لآخر.

وفي كل الأحوال، فإنه من الضروري عدم التأخر في إخبار الطفل بوضعه لسن المراهقة، وذلك لأن أي مراهق يتعرض لأزمة الهوية في مرحلة المراهقة. إذ يبلغ بحثه عن الهوية ذروته في تلك المرحلة، ويسأل نفسه سؤالا كبيرا هو: من أنا؟ فكيف يمكن إخفاء خبر مهم عن حقيقة وضع الطفل إلى أن يصل لعمر المراهقة، ثم نخبره بحكم أنه اصبح أكبر وأكثر وعيا بالأمور؟! فنحن في هذا الموقف نزيد الأمر صعوبة على المراهق، ونجعله يعيش صراعا؛ وبخاصة أن بناء الهوية الذاتية هو من أهم إنجازات الفرد في مرحلة المراهقة، ما يمكنه الوصول إلى الإنتاجية والسعادة في مرحلة الرشد، ويتضمن بناء الهوية معرفة الفرد لذاته، والقيم التي يتبناها، والاتجاهات التي يختارها لتحديد طريقة حياته.

■ من يخبر الطفل؟

وفيما يتعلق بمسألة هوية الشخص الذي يمكن أن يخبر الطفل، فمن الأفضل أن يعرف الطفل من أبويه البديلين، بدلا من الأشخاص الآخرين، سواء في المدرسة، أو من العائلة، وذلك حتى لا تتزعزع الثقة بين الطفل وأبويه، وكي لا يعيش صراعا بين ما هو عليه، وما

يتمنى أن يكون عليه، فضلا عن أن معرفة الطفل بحقيقة وضعه من أبويه يزيد من الثقة والصراحة والوضوح بينهما، وهما اللذان يستطيعان نقل الأمر بكل وضوح للطفل، وكيفية احتضانه، وما يمثل بالنسبة لهما. وقد يتطوع بعض أفراد العائلة، مثل: العم، أو العمة، أو الخال، أو الخالة بأن يخبر الطفل بالأمر، ولكن ذلك قد يترك شرخا في علاقة الطفل بأبويه البديلين، وربما يشعر أن هناك أمورا أخرى يخفونها عنه.

■ كيف يتم إخبار الطفل بحقيقة أمره؟

يجيب خبراء الرعاية البديلة عن هذا السؤال من خلال تقديم مجموعة من التوجيهات على النحو التالي (بنات، ٢٠١٣: ٤٤ – ٤٦؛ دريباتي، ٢٠١٩):

- يجب أن تتم عملية إخبار الطفل بأنه محتضن بالتدريج وبعد تهيئته، وتجنب إخباره بالأمر فجأة ودفعة واحدة –مهما كان عمر الطفل عند اتخاذ قرار إخباره- كأن تتم في جلسة مخصصة لتفجير هذه الحقيقة أمام الطفل، ثم الانتظار لرؤية ردات أفعاله.
- يمكن للتهيئة أن تبدأ في عمر صغير عبر القصص، واللعب، والرسم، ومناقشة صورة كرتونية، أو فيلما حول الموضوع، وبلغة تلقائية وطبيعية حسب ما هو دارج في أسلوب الأسرة، إذ لا توجد لغة يمكن اعتبارها الأفضل لتقديم المعلومات للطفل.
- تتمركز التهيئة حول شرح فكرة «كيف يأتي الأطفال إلى الدنيا؟»، وتناول حمل الأم للطفل في بطنها، وتقديم نماذج من نساء العائلة الحوامل، أو صورا لامرأة حامل، ثم الحديث عن ميلاد الطفل، ومن ثم يتم التمهيد بتقديم فكرة مفادها أن بعض الأطفال تحمل بهم أم ثم لا تتمكن من رعايتهم، فيقوم آباء آخرون ودودون برعايتهم وتربيتهم. هنا يمكن الاستعانة بالقصص التي تكون من عالم الحيوانات والطيور، إذ إن الأطفال شغوفون بهذا النوع من القصص، وتتم مناقشتهم بالقصة وأحداثها، كما يمكن الاستفادة من القصص القرآني المتعلق بالموضوع، مثل قصة سيدنا موسى التي تذكرها الآية (٧) من سورة القصص ﴿ وأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. ومن الممكن تمثيل الحكايات وأدوارها ما بين الطفل والأم والأب، أو أداء الأدوار بواسطة الدمى، ومن الأهمية بمكان إعادة سرد القصة

مرات ومرات، وعدم الاكتفاء بسردها وتمثيلها مرة واحدة، فالتكرار ضروري لجعل أحداثها طبيعية ما يسهل تقبل الطفل لفكرة عيش الطفل عند أبوين غير اللذين أنجباه.

- بإمكان الأبوين الاستعداد مبكرا للتوقيت الذي سيختارانه لإخبار الطفل قصة احتضانه من خلال الاحتفاظ بتسجيلات للذكرى صوتية أو مصورة فوتوغرافيا أو بالفيديو للحظة ذهابهم إلى المؤسسة التي أحضراه منها، وتصوير مكان نومه، وتصوير لحظة دخوله منزلهما، واحتفالهما بمجيئه، وذلك إضافة للتسجيلات والصور التي تظهره عبر مراحل العمر، وستخدم مثل هذه المصادر في التعامل مع أسئلة الطفل لاحقا بعد إخباره قصة احتضانه.
- يجب على الأبوين الانتباه لمشاعرهما وسلوكهما غير اللفظي في أثناء إخبار الطفل قصة احتضانه، فالطفل ذكي وحساس لإشارات وعلامات التوتر والضيق والحزن التي قد تبدو على الأبوين، ما يجعله غير مرتاح لحديثهما قبل بدئه. وعليه؛ فإن استخدام نبرة صوت مناسبة ومتماسكة، والمحافظة على مسافة قريبة، واتصال بصري بينهما وبين الطفل، تعد من الأمور ذات الأهمية حين إخبار الطفل، ولا تقل أهمية عن اختيار الكلمات والعبارات الملائمة للحديث معه.
- التأكيد على الطفل بأن قرار احتضانه من قبل أبويه كان قرارا باعثا على البهجة في نفسيهما، وأن خبرة احتضانه خبرة سارة وإيجابية بالنسبة لهم.
- لفت انتباه الطفل إلى مسألة اختياره بالتحديد من بين مئات الأطفال الذين يشبهون وضعه، والمودعين في مؤسسات الرعاية الاجتماعية، وأنهما شعرا نحوه بانجذاب، وقرار احتضانه بمحض إرادتهما، ومن هنا بدأت علاقته بهما.
- من المفيد للأبوين قراءة كتب عن الاحتضان والرعاية البديلة، والاطلاع على المواقع الإلكترونية ذات العلاقة، فهذه المصادر تثري معرفة الأبوين، وتعطيهما أفكارا متنوعة حول إخبار قصة الاحتضان.
- قد يكون من الملائم التواصل مع عائلات مرت سابقا بخبرة مماثلة لها علاقة بالاحتضان، ويمكن الحصول على عناوينهم من مؤسسات الرعاية الاجتماعية؛ إذ إن التشارك مع

آخرين مروا بالخبرة نفسها يمنح الأبوين شعورا بالمساندة والدعم العاطفي والاجتماعي المهم في خبرة الاحتضان.

- إذا شعر الأبوان أنهما يجدان صعوبة في إبلاغ الطفل بقصته؛ فإن عليهما استشارة اختصاصي نفسي، أو مرشد نفسي أو أسري ليساعدهما في تحقيق هدفهما المتعلق بإبلاغ الطفل، والتعامل مع الموقف وإدارة توابعه.
- يحتاج الأبوان لأن يتمتعا بالصبر بعد إخبار الطفل قصة احتضانه، إذ سيميل الطفل لطرح العديد من التساؤلات التي تعينه على الفهم، وقد يضطر الأبوان للإجابة عن التساؤل نفسه العديد من المرات، والمطلوب هنا منهما: التسامح والانفتاح على تساؤلاته، وعدم الإحباط من الإعادة والتكرار.

إن الاحتضان خطوة إيجابية للأسر غير القادرة على الإنجاب، والأطفال الذين يعيشون في مؤسسات ودور الرعاية، وهي حقيقة لا يستطيع الطفل تجاهلها في حياته لكن ما يحظى به من حب وحنان ورعاية من أبويه كفيلة بأن تجعله يتقبل الاحتضان الذي يحمل بطياته معاني كبيرة له ولحياته بدلا من بقاءه بمؤسسات اجتماعية طيلة عمره.

ج- صعوبات تربية الطفل المحتضن

تقع الأسرة البديلة في أخطاء متعددة تؤثر على الطفل تشبه تماما ما يحدث عند تربية الأبناء الأصليين، ولكن تأثيرها على الطفل المحتضن يكون مضاعفا، ومنها:

■ الدلال والخوف الزائد

يكثر الأبوان المحرومان من الإنجاب من تدليل الطفل المحتضن لإظهار حبهما له ما يجعله طفلا أنانيا متسلطا بعيدا عن تحمل المسؤولية، كما أن الخوف المستمر عليه يجعله محاطا بمحاذير وأوامر وقوانين تفرض عليه حصارا مستمرا قد تجعله لا يتقبل الأمر وبالتالي يعاندهما في معظم المواقف.

وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية أن نصف الأسر في عينة الدراسة يتبع أسلوب الدلال والخوف الزائد في تنشئة أطفالهم المحتضنين،

بينما النصف الآخر لا يتبع هذا الأسلوب في التنشئة. وقد لاحظ الباحث وقوع الكثير من الأسر البديلة في أخطاء كبيرة عندما يلبي الآباء والأمهات كل رغبات أطفالهم ولا يرفضون لهم طلبا، معتبرين ذلك جزء من الحب الصحيح الذي يقوي روابط المحبة بينهما، بل يعجز البعض عن رفض أي طلب مهما كان نوعه بحجة عدم كسر نفسية الطفل. وعادة ما يكون هذا الدلال من جانب الأبوين البديلين للطفل المحتضن بدافع الشفقة، وتعويضه عما فقده. إن هذا الأسلوب يقدم للطفل معنى غير أمين للحياة التي لا تمنح الفرد كل ما يريد، ويسهل له الطريق نحو الاحباط الشديد في حالة عدم حصوله وفورا على ما يريد، إضافة إلى أنه يعلمه تبني دور الأخاذ وليس المعطاء.

بارتباك شديد وحيرة وقفت "نرمين" أمام طفلها ذي الستة أعوام بعد أن ألقى بلعبته الجديدة أرضا رافضا أن يتوقف عن الصراخ، قبل أن تشترى له لعبة أخرى شاهدها أثناء تجوالهم في المول، رغم أنها اشترت له قبل قليل لعبة اختارها بنفسه، وأصر عليها رغم ارتفاع ثمنها. صراخه كان يحمل لها اتهاما أمام المارة بأنها أم قاسية، ترفض أن ترضى طفولته المتطلعة للعبة جديدة، بينما عجزها أن تخبر المارين بجوارها أنها لا تحرمه شيئا وأنها تعرف أنها حتى لو اشترت تلك اللعبة فلن يتوقف عن الصراخ ولن تشبع تطلعاته أصابها بارتباك شديد وصدمة حقيقية، بعد أن تأكدت أن طفلها تحول لكائن متطلب وأناني لا يرضيه شيء، لكنها ربما لم تدرك أن هذا الطفل هو صناعة تحمل اسمها هي وأبوه.

ويقول أب بديل: «يتصرّف "ماجد" وكأنه ملك الكون، يريد أن يكون كل من يحيط به تحت إمرته، فهو يطلب من شقيقه أن يحضر له كوب الماء، ويفرض على صديقه أن يحمل حقيبته، فهو اعتاد الدلال والحصول على كل شيء من دون أي مبادرة».

وقد لاحظ الباحث أيضا شدة حرص الكثير من الأسر البديلة على أطفالهم، فتضيق عليهم الخناق، وتقيد حريتهم، وتحرص عليهم لدرجة تعيقهم عن تحمل مسؤولية سلوكياتهم وقراراتهم؛ حيث يكون الابن أو الابنة محاطا بسين وجيم وبكلمات الرفض والمنع وتلقي الأوامر والنواهي، فيعيش الأبناء هنا حالة من الخوف تمنعهم من المغامرة والانطلاق بثقة وشجاعة.

إن إغداق بعض الأسر البديلة العطف الشديد والحنان الكبير على الطفل المحتضن، والوصول به إلى درجة الدلال الزائد يفسد الطفل، ويجعله يتمرد في المستقبل على الأسرة، فتعجز عن رعايته وقد تتخلى عنه. وكذلك فإن شدة الحرص على الطفل والتحويط عليه في كل حركاته وسكناته ينشئه اعتماديا خائفا أو يتمرد بعد ذلك على تلك الحماية عندما يكبر ويصل إلى مرحلة المراهقة، فيصبح عدوانيا ثائرا فتعجز الأسرة عن التعامل معه أو تقبله (السدحان، ٢٠٠٣: ٨٩).

وللتخلص من هذه الآفة، ينصح التربويون أن يعتدل الأهل في تربية طفلهم وألا يبالغوا في حمايته وتدليله، أو إهماله كذلك على حد سواء. وعليهم أن يعوا أنهم عندما يمنعون عنه بعض حاجياته، فليس معنى ذلك حرمانه، بل تنشئته تنشئة صحيحة، حتى يخرج الطفل للمجتمع قادرا على مواجهة الحياة. فليس كل شيء ميسرا وليست كل الرغبات متاحة، وإن محاولة إرضائه وتلبية طلباته على الفور، فإن ذلك قد يسعده، لكن هذه السعادة لن تدوم حينما تتعارض رغباته لاحقا مع الممنوعات. فالدلال المبالغ فيه وإن كان مدفوعا بالحب والعواطف الطيبة، إلا أنه كثيرا ما ينقلب إلى عكس المراد.

■ الانفعال على الطفل

كثيرا ما ينفعل الأبوين على أولادهم فيتلفظون بألفاظ لا تنم إلا عن غضبهم ورغبتهم في أن يفرغوا طاقتهم السلبية في أطفالهم، ولا شك أن وجود طفل في الحياة يغير من عادات الأبوين بصورة كبيرة، وقد يجد الأبوان صعوبة في التعامل معه، وفهم طلباته ما يدفعهما إلى الانفعال عليه ما يقلل من إحساسه بالأمان وزيادة شعوره باليتم. وقد بلغت نسبة الآباء والأمهات الذين أشاروا إلى أنهم ينفعلون على أطفالهم المحتضنين كرد فعل لأخطائهم (٢٥%) من إجمالي حجم العينة، بينما أشار (٧٥%) إلى أنهم لا ينفعلون مهما فعل الصغار من أخطاء. وقد لاحظ الباحث أن بعض الأمهات في الأسر البديلة تفقدن أعصابهن عند أول رد فعل لأخطاء الصغار ويعلو أصواتهن بصراخ متكرر لا ينتهي إلا بعد ضرب أطفالهن ضربا مبرحا، وهو ما قد يشكل خطرا كبيرا عليهم يجب تداركه قبل فوات الأوان. وقد شاركت أم تجربتها في هذا الموضوع، حيث قالت أنها اعتادت أن تكون شخصا هادئا إلى أن أصبحت أما، بعدها انقلبت

الموازين، فعندما كانت تحاول قراءة إحدى المجلات مع فنجان من القهوة لتمارس كعادة قديمة. وتشغل التلفاز لتجعل طفلها يشاهد البرامج الكرتونية، كان يبدأ الطفل بعد عدة دقائق بالصراخ وإحداث الضجة، فتبدأ بالصراخ هي الأخرى لتهدئة الوضع. لكن وإن استطاعت السيطرة على الأمر؛ تبقى متوترة ولا يمكنها الاسترخاء، حتى أنها تصاب بفوبيا من الرد على المكالمات الهاتفية. ويزداد عنفها وغضبها بعد رفض طفلها لتنفيذ ما تريد، مما يجعلها تشعر بأنها أسوأ أم، فكل هذا التقلب في المزاج والضجر الذي يصيبها يجعلها تشعر بعدم الارتياح، كما يملك طفلها ذات الشعور. فالأب العصبي في تصرفاته يعلم أطفاله هذا السلوك، والأم العصبية الثائرة دائما تعلم أولادها هذا السلوك، بعكس الأب والأم الهادئين؛ فإن الطفل يتعلم منهما السلوك الهادئ والمرن؛ فالطفل يتعلم ويقلد من حوله.

وقد أثبتت الدراسات التربوية والنفسية أن الطفل يولد بلا أي سلوك مكتسب، وأن شخصيته تتكون بنسبة كبيرة من أساليب التعامل معه أثناء طفولته، وتعتبر العصبية من أهم السلوكيات التي يكتسبها الصغير، والتي تبرز في التعاملات اليومية معه، خاصة الصادرة من الأبوين، فعندما يشاهد ويشعر بانفعالات أبويه الغاضبة يتملكه سلوك العنف والعصبية، إلا إذا استطاع الأبوان التحكم في انفعالاتهما، وضبط مشاعر الغضب أمام أطفالهما، سواء كانت موجهة لهم أم لسواهم، فالأطفال يتمتعون بالحس المرهف، وبنسبة جميلة من الذكاء، تجعلهم أكثر حساسية لما يدور حولهم من سلوكيات الكبار. لذا على الأفراد المحيطين بالأطفال التحكم بانفعالاتهم أمامهم وتمالك النفس عند الغضب والتحلي بالصبر لينشأ هؤلاء الأطفال في أجواء سليمة ومريحة تسمح لهم بالتعلم والنمو والإبداع.

■ التسرع في التأقلم

تأمل الأسرة البديلة أن يتأقلم الطفل سريعا معها، لكن الواقع عكس ذلك تماما، فالتأقلم لا يأتي بين ليلة وضحاها، ويتطلب صبرا طويلا، لذا على الأبوين مراعاة ذلك، والتحلي بالصبر وعدم الشعور بالملل، أو اليأس لكي لا يظهر ذلك في تعاملهم مع الطفل وبالتالي تتأثر نفسيته كثيرا.

وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية أن نسبة الأسر التي لم يتأقلم الطفل المحتضن معها قد بلغت (١٥%) من إجمالي حجم العينة، في مقابل (٨٥%) حدث التأقلم بينها وبين الطفل المحتضن. ويقول أحد الآباء معبرا عن شعوره بعدم التأقلم بينه وبين الطفل: «ابني لا يحبني: ما الحل؟» وربما حدث التأقلم بين الطفل المحتضن والأسرة التي احتضنته في معظم الأسر بسبب أن هذه الأسر لجأت لاحتضان طفل رضيع لم يتعرف بعد على هويته وذويه وذلك رغبة منهم لأن يعيش هذا الطفل معهم وكأنه ابنهم ومن صلبهم. وكان الرئيس عبد الفتاح السيسي في وقتا سابق، قد أصدر قرارا بشأن تعديل بعض أحكام قانون الطفل، وينص على أن «يستبدل بكلمة (سنتين) الواردة في الفقرة الأولى من المادة (٤٦) من قانون الطفل الصادر بالقانون رقم (١٢) لسنة ١٩٩٦ عبارة (ثلاثة أشهر)» (الجريدة الرسمية، ٢٠١٥، ٣١ يناير: ٣). ويأتي هذا التعديل حتى يتسنى للأسر البديلة رعاية الأطفال، الذين تم التخلي عنهم عند الولادة بدءا من سن ثلاثة أشهر بدلا من سن سنتين، وذلك بعد استخراج شهادة الميلاد الخاصة بهم والتأكد من سلامتهم الصحية، الأمر الذى يساهم في نموهم البدني والإدراكي بشكل سليم وصحى. إن كفالة الأطفال في سن ثلاثة شهور سيعمل على دمجهم بالأسرة. وللحيلولة دون أن يشعر الطفل بالارتباك بسبب التغيير، وعليك كأب/ كأم مساعدة طفلك على التكيف مع كونه جزءا من أسرة بديلة: فاقضي وقتا لتعزيز العلاقات الأسرية التي كانت موجودة قبل تأسيس الأسرة الجديدة البديلة. على سبيل المثال، خطط لأنشطة خاصة أو نزهات لا يكون فيها أحد سواك أنت وطفلك فقط. ولا تضغط على طفلك أو على غيره من أفراد الأسرة لإقامة علاقات جديدة جيدة من الوهلة الأولى. بدلا من ذلك، شجع جميع أفراد الأسرة أن يعامل بعضهم بعضا بالتوقير والاحترام.

■ استغلال الطفل عاطفيا

هو سلوك يقوم به أحد الأبوين من منطلق الحرص على تربيته للطفل بشكل صحيح، كأن يقول له: إن لم يسمع النصح، ويلبي الأوامر فسيقوم بإرجاعه إلى دار الرعاية، وهذا أحد أنواع الاستغلال النفسي الأكثر سلبية على نفوس الأطفال المحتضنين، وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية أن الأسر التي تتبع هذا الأسلوب مع أطفالها المحتضنين هي فئة قليلة جدا لا تتعدى عشر عينة الدراسة، بينما أشار (٩٠%) من

الأسر إلى أن هذا الأسلوب مرفوض وغير مناسب تماما في التربية والتنشئة الاجتماعية. وينبغي القول أن بعض الأسر قد تفسد علاقة الطفل بمؤسسات الرعاية الاجتماعية، عندما يهددونه من آن لآخر إذا تصرف بما يغضبها؛ بأنهم سيقومون بتسليمه وإيداعه لدى المؤسسة الإيوائية، ليرهبوه بذلك، ما يشعره بعدم الأمن والاستقرار، ويضعف مشاعره تجاه الأسرة، وأيضا يجعله هذا لا يتقبل أي طرف من الجهات المعنية به لمتابعته في المستقبل.

د- تحديات مستقبلية

ومن الأزمات المستقبلية الأخرى المتوقع حدوثها في حال استمرار المشكلة بوضعها الراهن،، ما يلي:

■ أزمة تكوين الهوية

في كل الأحوال، يرى الباحثون أن عملية تكوين الهوية تختلف من فرد إلى فرد،من مجتمع إلى مجتمع ومن ثقافة إلى ثقافة، فلن تتكون هوية متماسكة إلا نتيجة تفاعل توافقي للفرد مع ماضيه وجذوره العائلية وخبرات الطفولة في شتى المجالات من جهة، وبينه وبين تطلعاته المستقبلية ضمن الفرص المتاحة له والحدود الواقعية لطموحاته الشخصية من جهة أخرى. فالبحث عن الهوية ليس هو هروبا من الطفولة ولا الغوص في أحلام مستحيلة المنال. أنها عملية صحية، مرنة، ديناميكية، يتعرض خلالها الفرد إلى نماذج سلوكية وأخلاقية مختلفة وصولا إلى التزامه في نهاية المطاف بمجموعة من القيم والمفاهيم تتكيف مع تاريخه الشخصي وتقدم له أرضية صالحة لتحركاته المستقبلية. باختصار فإن البحث عن الهوية ما هو إلا عملية استكشاف والتزام. وكما يقول بياجيه Piaget «إن الاختبار المستمر للأفكار الجديدة وتحليلها وربطها بالمعرفة السابقة هو دليل عافية فكرية ونفسية يتميز به النمو الفكري عند الانسان على مدى الحياة ولا يتوقف عند مرحلة المراهقة» (عون وعلة، ٢٠١٩: ٧٧).

إن العمل الذهني الذي يقوم به المراهق، بحسب بياجيه، يعكس رغبته في رسم استراتيجية جديدة لنفسه، استراتيجية من اختياره هو لا من اختيار الراشدين، وهذه الاستراتيجية تتمحور حول السؤال الجوهري: من أنا؟ إضافة الى التساؤلات العديدة حول

المنحى الذي سيتخذه مستقبله (النجاح أو الفشل في المدرسة، التطلعات المهنية، التعليم الجامعي، التوظيف، الزواج، المسؤوليات العائلية). تتأثر الاجابة على هذا السؤال بشكل كبير بالأشخاص والأحداث والمحيط الذي يتفاعل المراهق معهم: كلما نضج، كلما تغير مفهومه لذاته، وكلما زاد إدراكه لعواطفه ومشاعره، كلما تأثرت هويته وتأثرت خياراته وقراراته بالنسبة لتطلعاته التعليمية أو المهنية أو الحياتية بشكل عام. كما يقول معلوف (١٩٩٩) في كتابه الهويات القاتلة": «إن الهوية قابلة للتغير والتبدل حسب تأثير الآخرين بشكل أساسي على عناصرها» (ص ٢٥).

ويتلخص تعريف الهوية بمعناها الفلسفي على أنها الطابع الفريد أو البصمة الفريدة والحقيقة التي تجعل فردا من الأفراد مميزا عن غيره، وهي شعور الفرد بذاته، وإحساسه بفرديته وقدرته على المحافظة على قيمه ومبادئه وأخلاقياته وسلوكياته في المواقف المختلفة (The Free Encyclopedia, Identity: Social Science). وقد كثرت الدراسات التي تحاول الإجابة عن سؤال: ما هي الهوية، ومحاولة تحديد المعالم الرئيسية التي تشكل هوية الإنسان، ومن آثار هذه الدراسات والأبحاث ظهور عدد من المفاهيم والمصطلحات منها: أزمة الهوية، وعلاقة الهوية بالصورة النمطية المأخوذة عن شعب من الشعوب، إضافة إلى مفهوم صراع الهويات.

تبدو مرحلة المراهقة محملة بالتعقيدات بقدر ما توحي به من البساطة، فالمراهق الخارج من قوقعة الطفولة يبحث عن اعتراف من قبل من هم أكبر منه سنا، يشعر بأنه جدير بالانتساب لمرحلة الشباب أو الرجولة، لكنّه يلقى صدى غير مقصود، وما يمكن توصيفه من قبله بأنه إنكار لحضوره، ما يبقيه في حيرة، ويشحن شخصيته بمزيد من القلق المتجدد الذي يستقي ديمومته واستعاره من ممارسات المحيطين به وأفكارهم عنه. مما يجعله يعيش قلقا من ناحيتين: ينتابه شعور بالنبذ والتغريب ممن هم أصغر منه وممن هم أكبر، يكون حائرا في الانتماء، وباحثا عن صيغة ليبلور بها هويته وشخصيته، إذ إنه يمر بمرحلة اكتشاف للجسد، وتعرف إلى خبايا عوالم الجنس الآخر، وقد يمر بمنعطفات خطيرة وينحو باتجاهات متشددة، لأنه يكون أرضا خصبة لامتصاص الأفكار وتقمص الشخصيات التي يعجب بها، أو يجد فيها أمانا آنيا أو قدوة متوقعة (محمود، ١٩٨١: ١٥). وتتجسد تلك الصعوبات بأزمة الهوية التي

يعاني فيها المراهق من عدم معرفته ذاته بوضوح أو عدم معرفته لنفسه في الوقت الحاضر، فيشعر بالضياع والتبعية والجهل بما يجب أن يفعله ويؤمن به، وهي علامة على طريق النمو يمكن أن تؤدي إلى الإحساس بالهوية أو تشتتها. وإذا كان المراهق العادي يمر بهذه الأزمة مع بعض الصعوبات المحتملة فإننا نجد أن المراهق مجهول النسب يعاني بشدة في هذه المرحلة لأن أصل الهوية الشخصية والعائلية مفقود فهو لا يعرف من أبيه، وبالتالي لا يعرف إلى من ينتمي، في الوقت الذي يرى أقرانه ينتمون إلى آبائهم ويفخرون بانتسابهم لعائلاتهم، أما هو فيشعر أن الأرض قد غارت من تحت قدميه، فلا توجد أرض صلبة يقف عليها فهو أشبه ببناء بلا أساس. والمراهق المحتضن قد يختبر المشكلات السلوكية والمتاعب النفسية بشكل أكبر من الأقران غير المحتضنين. وربما يتساءل عن الآباء الأصليين، وكيف يبدو شكلهم، ولونهم، وأعينهم، ومكانهم، والطبقة الاجتماعية التي انحدر منها. وتستمر هذه التساؤلات حول الهوية الاجتماعية حتى البلوغ والشباب، وتتأزم إذا كانت هناك فوارق بيولوجية في المظاهر بين الأسرة الحاضنة والمحتضن. وحينما يصبح المحتضن أبا/ أما يتساءل: كيف كان بالإمكان لأبواي أن يتخليا عني؟ وما نوع هذان الأبوان اللذان استطاعا أن يقترفا مثل هذا القرار؟ وترتبط تساؤلات الهوية وأزماتها بالمتفاعلات النفسية. ولا يتوقف الأمر لدى المراهق مجهول النسب عند عدم معرفته بأبويه وإنما يزيد على ذلك نظرته لنفسه كونه أنجب من علاقة خاطئة ولم تهيء له مقدما طبيعيا لهذه الحياة، وهنا تتكون لديه مشاعر متناقضة، لهذا نجد أن مشاعره يختلط فيها الحب بالكراهية والغضب والاحتقار والعتاب والاحتجاج. أن الهوية مطلب أساسي بالنسبة للإنسان، وهي حين تكون غامضة أو مضطربة أو مشوهة تجعل البناء النفسي هشا أو مشوها. فالشخص الذي يعاني من أزمة الهوية لا يملك رؤية واضحة عن نفسه، وبالتالي لا يمكنه بناء علاقات جيدة وصحية مع نفسه ومحيطه ويظل متخبطا على غير هدى. فمن أخطر الأمور التي قد تعيق حياة الإنسان، العيش في الماضي أو القلق من المستقبل، وأفضل ما يفعله الإنسان أن يستثمر في الحاضر ولا يعيش آلام الماضي، ولا يقلق بشأن المستقبل.

- **مجهولو النسب يعانون معارضة الأسر والمجتمع لزواجهم**

وعندما نقف مع نظرة المجتمع لمجهولي النسب نراه ينظر إليهم بنظرتين:

- النظرة الإيجابية: هذه النظرة ترى أن مجهول النسب طفل يتيم ويحتاج للرعاية والكفالة والمساعدة، ويتم التعامل معه من هذا المنطق لابتغاء الأجر والمثوبة عند الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: (أَنَا وكافِلُ الْيَتِيمِ فِي الجنَّةِ هكَذَا وأَشَار بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا) (صحيح البخاري، حديث رقم ٥٣٠٤). ولهذا نجد أي أسرة تكفلت بطفل من هؤلاء –وخاصة الأسر التي لم يرزقها الله بالذرية- إلا وركزت على حسن رعايته، والاهتمام به، وتوفير متطلبات الحياة له، واعتباره ابنا لها، وعدم توجيه نظرة دونية له، اعتبارا لما ورد في الشريعة الإسلامية من نصوص، تؤكد أنه لا ذنب له في هذا المصير الذي صار إليه، كما قال الله تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سعيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ (سورة النجم: الآيات ٣٨ – ٤١).
- النظرة السلبية: هذه النظرة السلبية موجودة في المجتمع –أيضا- موازاة مع النظرة الإيجابية، وهي تنظر للطفل المجهول النسب بنظرة دونية، على أساس أنه ولد غير شرعي ولا يعرف نسبه، وأنه ليس في أسرته الحقيقية، وربما نعتوه بألفاظ نابية، مثل: لفظ اللقيط أو ولد الحرام أو ولد الزنا أو الكَبُّول وغيرها من الألفاظ النائية التي قد يتنابزون بها ويهمزون له به، فتؤلم الطفل وتحمله ذنبا وعارا ليس من كسبه، وتثقل كاهله بتساؤلات كثيرة تؤدي به للانعزال والأمراض النفسية، التي قد يكابدها طيلة حياته، وتعكر عليه صفو حياته، وتفسد عليه الجو الأسري البديل الذي يعيش فيه، وتظهر هذه النظرة أكثر حين الخصام والاختلاف، كما تظهر في المواقف الرسمية الجادة والتي منها الزواج، وإن لم تنطق بتلك الألفاظ النابية إلا أنها تكون مصاحبة للموقوف وأحد أسباب الرفض. (أحمد، ٢٠١٨: ٩٦١ – ٩٦٢).

من الناحية القانونية فقد سار المشرع المصري على نهج الشريعة الإسلامية؛ فموانع الزواج ليس منها كون أحد الزوجين مجهول النسب، وبالتالي، فإذا كان اللقيط ومن يريد الزواج منها خاليين من موانع الزواج فلا حرج على أي منهما في أن يتزوج من الآخر، خصوصا إن كان صاحب خلق ودين لدخول ذلك في عموم قوله ﷺ: (إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ) (صحيح الترمذي، حديث رقم ١٠٨٤).

أن مجهول النسب لـه الحق في الزواج؛ سواء مع طرف بنفس وضعه، أو شخص معلوم النسب، فلم يميز المشرع القانوني، ولم يمنعهم من الارتباط طالما كان الزواج مكتمل الشروط والأركان وخال من العيوب وفق قانون الأحوال الشخصية. فالقانون لا يشكل عائقا أمام مجهولي النسب في قضية الزواج، لكن العائق الأكبر هو إقناع الطرف الآخر الذي يكون شريكا في إبرام العقد، ليتوفر بذلك الركن الأساسي في الزواج وهو رضا الطرفين، وتوافق إرادتهما في الارتباط، وهذه المسألة معقدة جدا تحكمها الأعراف والنظرة الدونية من طرف المجتمع لمجهول النسب كما سبق ذكره. ومن هنا طرح البعض حل بديل وهو البحث عن تزويج هذه الشريحة من بعضها البعض، وهذا يتناسب وكل الأقوال الفقهية القائلة بالكفاءة في النسب أو التي لا تعتبرها، والوصول إليهم ليس بالأمر العسير في ظل التسجيل والتدوين، وهذا يرفع الحرج والإشكال على كل الأطراف.

■ لا ميراث للابن المحتضن

ركزت الشريعة الإسلامية على الأنساب نظرا لما يترتب عليها من حقوق أخرى في المال والميراث، ذلك أن النسب تترتب عليه حقوق وواجبات بين أفراد العائلة الواحدة، فإذا أضيف فرد دخيل عليهم، يغتصب بعض حقوقهم أو ينقص من أخرى كالإرث مثلا، فهذا من شأنه أن يثير الحقد بينهم ويقطع أرحامهم. ولا يخفى ما في ذلك من تضييع مقاصد تشريع التوارث بالتنازع بين العنصر الدخيل (الدّعيّ) وبين العناصر الحقيقية للأسرة. كما أنه عادةً تناقض مقصد الشارع من سد أبواب ومنافذ الخلاف والشقاق والفساد داخل البيت المسلم (حسين: ٢٠١٦، ٤٤٩).

حرم الإسلام التبني عدلا ورحمة، فالعدل أن ينسب الإنسان إلى أبيه الحقيقي لا أن ينسب إلى أب مستعار، يقول الله تعالى: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (سورة الأحزاب، من آية ٥). أي: هو أعدل حكما؛ ورحمة بمجهول النسب؛ ذلك أن التبني صلة صورية قائمة على الكذب والافتراء والخداع ولا يمكنها أن تنتج عاطفة أبوة أو أمومة حقيقية، وسرعان ما سيعلم هذا الولد بهذه الحقيقة المرة وهذا الخداع الذي مورس عليه، فتكون ردة فعله عنيفة:

حقد، عقد نفسية، حب انتقام ثم انحراف وجرائم. لهذا السبب أراد الإسلام أن تكون الصلة من بداية الأمر صلة حقيقية مبنية على العدل والرحمة.

رغب الإسلام في رعاية الطفل – سواء اللقيط أو اليتيم- والاهتمام به والاعتناء بتربيته والإنفاق عليه حتى ينشأ النشأة الكريمة التي تتيح له أن ينمو في بيئة صالحة تكرمه وتحنو عليه. فوجود الطفل بين أبيه وأمه في محيط أسرة تحيطه بالرعاية والاهتمام في فترة الطفولة هو أبسط حقوق هذا الطفل ومن أهمها، لهذا جعل الإسلام كفالة اليتيم من أفضل القربات إلى الله، وحرص على جعلهم في كفالة الأسرة أولا ثم في كفالة المجتمع والدولة. ولكنه في الوقت نفسه نهى عن كل ما من شأنه حرمان ذوي الحقوق من حقوقهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) (صحيح البخاري، حديث رقم ٥٦٦٨). وفي المقابل أجاز الإسلام الوصية للمحتضن بثلث المال إعانة له على شق طريقه في الحياة.

إن من قام باحتضان طفل مجهول النسب يجب أن يعلم أن هذا الطفل لا يستحق شيئا من الميراث بعد وفاته ومن يرغب أن يهب له شيئا من ماله في حياته فلا مانع، ومن أراد أن يجعل له شيئا من تركته بعد وفاته فالطريقة الشرعية أن يوصي له بما يريد بشرط أن يكون من الثلث فأقل، ولا يتجاوز ثلث التركة مع بقية وصاياه إن كان له وصايا أخرى.

وعليه: فإيصاء الحاضن لمن يحتضنه جائز شرعا بالشروط المذكورة في الموصي، ما دام ذلك في حدود ثلث التركة، وتنفذ الوصية عند ذلك دون حاجة لإذن الورثة، فإن زاد القدر الموصي به على الثلث استئذن الورثة في الزائد، فإن أذنوا جاز، وإن لم يجيزوا لم تنفذ الوصية في هذا القدر الزائد، وإن أذن بعضهم دون بعض نفذ في حق المجيز فقط، ويرد الزائد إلى التركة لتقسيمها على الورثة، ويأخذ المحتضن الموصي له الثلث (موسوعة الفتاوي، ٢٠١٧/١٢/١٥).

٤- السياسات التي من شأنها تطوير نظام الأسر البديلة

عجزت يد وزارة التضامن الاجتماعي عن تحجيم مشكلات دور الأيتام والتعامل معها، على الرغم من استحداث عدد من الإجراءات خلال الأعوام الماضية من وضع معايير تقييم

وإنشاء فريق للتدخل السريع في الحالات العاجلة، وهو ما جعلها تفكر في تفعيل مسار آخر يحل محل دور الأيتام ويقدم الرعاية للمحتاجين بأقل المشكلات. وأصبحت الأسر البديلة هي المسار الذى تعمل وزارة التضامن حاليا على تفعيله بشكل كبير وصولا إلى إغلاق جميع دور الأيتام بحلول ٢٠٢٥، ولكن توجد عقبات كثيرة تعرقل الجهود المبذولة لتشجيع الأسر على احتضان الأطفال مجهولي النسب تمكن الباحث من رصدها من خلال هذه الدراسة. وهنا يثار السؤال التالي: ما الأساليب الفعالة والنشاطات التي تمكن الأسر البديلة من النجاح في مهمتها وبلوغ الأهداف أو المهام المنوط بها تحقيقها من وجهة نظر الآباء والأمهات في هذه الأسر حتى لا تضيع هذه الجهود أدراج الرياح؟

وقد كشفت الإجابات التي حصل عليها الباحث من خلال الدراسة الميدانية عن مجموعة من الأساليب والوسائل الفعالة التي تساعد الأسر البديلة على إنجاز مهمتها بنجاح في رعاية الأطفال مجهولي النسب، وجاءت هذه الأساليب والوسائل وفقا لأهميتها لدى عينة الدراسة على النحو التالي:

- ضم الطفل مجهول النسب للأسرة البديلة في وقت مبكر من حياته بنسبة (٩٠%)، أثبتت الدراسات التجريبية أن ذلك يساهم في تكيف الطفل بسرعة داخل الأسرة، وينعكس ذلك أيضا بشكل إيجابي على النمو الجسمي والعقلي واللغوي والاجتماعي والانفعالي للطفل، لا سيما وأن السنوات الأولى من عمر الطفل تشكل ملامح شخصيته.
- التبكير بالمصارحة بنسبة (٨٥%)؛ فكلما استطعنا تقديم الجواب المناسب عن أسئلة الطفل المتصلة بأصله ونسبه كان ذلك خيرا له بدل تأجيل الجواب أو المماطلة.
- ضرورة تدريب الآباء والأمهات في الأسر البديلة على أساليب المعاملة الأبوية ، ومهارات الاتصال مع الأبناء بنسبة (٨٠%)، موضوع تدريب الأبوين البديلين على الأبوية خاصة وأنهما لم يمارساها من قبل، وكذلك الخصوصية التي تتعلق بموضوع احتضان الأطفال، فهما أبوان لطفل لم ينجباه وهذا يحتاج لإعداد نفسي واجتماعي، وكذلك يترتب عليه تدريب وتعليم الآباء والأمهات في الأسر البديلة على ممارسة الأبوة الفعالة أو الموثوقة (حيث يكون الأهل فيها صارمين، إلا أنهم معطائون في الوقت ذاته). وقد أوضحَت

الدراسات أن الأطفال الذين يخضعون لنمط تربية موثوق، هم الأطفال الأكثر نجاحا في علاقاتهم الاجتماعية مع أقرانهم، والأعلى تحصيلا في المدرسة، والأكثر تقديرا لذواتهم.

- وضع ضوابط صارمة في اختيار الأسر البديلة، وإعداد دراسة دقيقة وواقعية للظروف الاجتماعية والاقتصادية للأسرة بنسبة (٧٠%)، والأولوية دائما للأسر التي لا تنجب، والأسر التي ترغب في رعاية الطفل دون الحصول على مقابل مادي، إن الدعوة إلى نظام الأسر البديلة ليس على إطلاقه، فإن لم يتوافر تحر دقيق عن الأسرة الراغبة في الاحتضان وحسن اختيار وإشراف شامل، فإننا قد نجني على هؤلاء الأطفال الأيتام ونأثم أكثر مما نغنم.
- إطلاق حملات توعية عبر مختلف وسائل الإعلام للتقليل من معاناة هؤلاء الأطفال في المجتمع بنسبة (٦٠%)، أنه تم اختيار الإعلام للقيام بهذا الدور التوعوي للمواطنين اعترافا بدوره الهام الذي لم يعد كالسابق يكتفي بمجرد ملاحقة الأخبار وعرضها، إنما أصبح اليوم يصنع الأحداث ويوجه الرأي العام. إنا نريد من الإعلام أن يسخر هذه القوة والتأثير الكبير في المساهمة في إزالة الوصمة عن فئة الأيتام مجهولي الأبوين وتوعية المجتمع حول حقوق هذه الشرائح الضعيفة في المجتمع، والتي تستحق الرعاية والاهتمام.
- الاهتمام بالمتابعة الدورية الدقيقة من الاخصائيين بالإدارة الاجتماعية للأسرة البديلة بنسبة (٥٠%)، ويكون للمتابعة أهداف محددة منها: التعرف على مدى تقدم الطفل في نواحي النمو المختلفة، أسلوب معاملة الطفل داخل الأسرة، الرد على تساؤلات الأسرة بشأن رعاية الطفل.
- إنشاء موقع إلكتروني تتبادل فيه الأسر الخبرات والمشكلات والحلول تحت إشراف مختصين اجتماعيين ونفسيين بنسبة (٤٠%)، يعتبر الإنترنت أفضل وسيلة للتواصل بين الناس، حيث يمكن الاتصال مع أي شخص موجود في مكان آخر من العالم، وكذلك يمكن استغلال مؤتمرات الفيديو والدردشة وخدمات المراسلة من أجل زيادة التواصل الشخصي والتفاعلي.

أن الأسرة البديلة كنظام هو من الأنظمة الرائعة التي ترعى الأيتام مجهولي الأبوين، فهناك الكثيرون يشجعون تلك الفكرة والبعض الآخر يعترض عليها بحجة أنها لن تستطيع أن تحقق النتائج الإيجابية وأيضا الأهداف المرجوة، ولكن في حالة وجود الأسرة المناسبة التي ستعوض الطفل عن فقدان أبويه تربويا ونفسيا، والعمل على تحري الدقة عن تلك الأسرة البديلة هو أمر هام للغاية لتهيئة الطفل لمواجهة المجتمع.

سادسا: الخاتمة والاستخلاصات

تقوم فكرة نظام الأسر البديلة على احتضان طفل مجهول النسب من قبل إحدى الأسر ليعيش بينها كأحد أطفالها ويتظلل بمظلة الأسرة الطبيعية، ويجد معها جميع الاشباعات التي يحتاجها سواء النفسية أم الاجتماعية أم المادية لينمو نموا متوازنا بين ركني الحياة الأسرية السوية (أب وأم)، ويحقق التكيف الاجتماعي والنفسي المتوازي، وهو يختلف كلية عن نظام التبني فلا يوجد في هذا النظام تسمية للطفل باسم الأسرة، وتبقى المحرمية قائمة إلا أن تقطع برضاع من الزوجة أو إحدى أقارب الزوجين، ولا يوجد في هذا النظام مخادعة للطفل أو المجتمع فهو قائم على الصدق بخلاف التبني القائم على خلاف ذلك من أول يوم.

وهذا النظام يفوق بمراحل نظام الإيواء في المؤسسات الاجتماعية سواء أكانت الدور والملاجئ أم قرى الأطفال، فمن خلال هذا النظام نحقق البيئة الأسرية السوية للطفل حينما ينشأ بين أب وأم ينهل من كل طرف ما يتصف به، فيأخذ من الأب قوته وحزمه وعقله، ويأخذ من الأم حنانها وعطفها وحسن تدبيرها، ويمكن للطفل أن يجد الاشباعات التي يحتاجها كاملة باعتبار أن الجهد منصب عليه وحده أو على طفل آخر أو طفلين معه، وليس كما هو الحال في الدور والمؤسسات الاجتماعية التي يوجد بها عشرات الأطفال الذين تتوزع اهتمامات المشرف أو المشرفة على الجميع فلا ينال كل طفل إلا جزءا يسيرا جدا من اهتمامات المشرف وطاقاته المحدودة المنهكة هو مما يعذر به.

إن العديد من الدراسات تظهر عدم ملاءمة المؤسسات الاجتماعية الإيوائية (الدور الاجتماعي) بشكلها الحالي لرعاية الأطفال مجهولي النسب رعاية سوية وفق ما ينشدها المجتمع ووفق ما يتمناه كل مخلص لأبناء أمته، فلا توجد دراسة مقارنة بين أطفال

المؤسسات الاجتماعية وأطفال الأسر البديلة إلا وتظهر تفوق أطفال الأسر البديلة في جوانب اجتماعية ونفسية وتعليمية عدة. كما تتفق البحوث والدراسات التي تناولت الأطفال المحرومين من الرعاية الأبوية على أن هذه المؤسسات قد نجحت في إشباع الاحتياجات المادية لهؤلاء الأطفال، وأخفقت بدرجة أو أخرى في إشباع الاحتياجات النفسية والاجتماعية المختلفة لهم.

وهذه النتائج تدعو كل متأمل لإعادة النظر في طرق الرعاية السائدة في مصر وهي الرعاية المؤسسية، وتناشده لزرع بذرة تغيير هذا الوضع القائم وتدعوه لتصحيح المسار والأخذ به إلى جادة الصواب، وبخاصة أنه ثبت أن للرعاية المؤسسية آثارا سيئة على المقيمين والمجتمع، وأصبح هذا النمط في الرعاية في حكم الماضي في العديد من الدول الصناعية، ويجب جعل الاعتماد على الرعاية المؤسسية الملجأ الأخير والتركيز على الرعاية في الأسر البديلة بشتى الوسائل.

يمتاز نظام الأسر البديلة بمزايا عدة لا تتوافر في النظم السابقة ولعل أبرزها سرعة اندماج مجهول النسب في المجتمع وسهولة تحقيق ذلك الاندماج بشكل طبيعي وتلقائي مما ينتج عنه تكيف سوي طبيعي وغير متكلف المظاهر والأشكال، ومع ما يوجد من مزايا فإنه قد يوجد بعض السلبيات لكنها تنغمر في بحر الإيجابيات المتوقعة منه. وبالموازنة بين سلبياته وإيجابياته نجد أننا قد نغض الطرف عن بعض سلبياته المتوقعة وليست المتحققة جراء ما ننتظره من إيجابيات عدة على الطفل والأسرة والمجتمع بشكل عام.

أن معظم المشكلات التي قد تتعرَض لها هذه الأسر هي مشكلات عادية يمكن التغلب عليها بحسن التصرف؛ لأن معظمهم أسر محرومة من الأطفال؛ لذلك فهم يقدرون قيمة الطفل. أما ما قد يطرح من إشكالات في هذا النوع من الرعاية للأطفال مجهولي النسب، مثل: قضية الاسم والتباين بين اسم الطفل واسم الأسرة، فهي مشكلة قابلة للحل من خلال التعامل الواعي والصريح مع الطفل وإخباره بواقعه بشكل متدرج وفي مرحلة مبكرة من عمره، واختيار الوقت والظرف المناسبين حتى لا يصدم الطفل المحتضن. وليس المقصود بالإخبار إعلامه أنه ثمرة علاقة غير شرعية، بل المقصود هو إخباره أن هذه الأسرة رعته لأن أبويه فقدا ولم يعرفا فقط

ليس أكثر من ذلك، والمهم اختيار العمر المناسب، واتباع الطريقة المتدرجة المناسبة مع التغيرات التي يمر بها كل طفل.

وعلى الرغم من تميز هذا النظام في رعاية الأطفال مجهولي النسب، فإنه لا يكتب له النجاح الكامل وبشكل عام ما لم تتوافر له أربع خطوات رئيسية هي:

- التأكد من مناسبة الأسرة البديلة الراغبة في الاحتضان وتهيئتها لاستقبال الطفل.
- إرضاع الطفل المحتضن من الزوجة إن كانت مرضعة أو من إحدى قريباتها أو قريبات الزوج لعلاج مشكلة المحرمية مستقبلا بعد بلوغ الطفل أو الطفلة.
- تقديم دعم اجتماعي ونفسي للأسرة في الفترات الأولى من استقبال الطفل ورعايته، مع وجود المتابعة اللاحقة لمن يحتاج إلى ذلك.
- تقديم دعم مادي للأسر التي تحتاج إلى مساعدة مادية.

ولا شك أن الرعاية المقدمة للطفل ستختل بقدر ما يكون من تقصير في إحدى الخطوات الأربع السابقة، مع ملاحظة أن بعض الأسر قد لا تحتاج لكل ما ذكر، ولكن لا حكم للنادر، ومسؤولية رعاية هؤلاء الأطفال أمام الله عز وجل تحتم اتخاذ أكبر درجات الاحتياط والواجب.

إن أزمة الطفل اللقيط معقدة ومركبة ولا تبدأ عند ولادة الطفل، ولكنها تسبق ولادته بأشهر بل وسنوات من الزيغ إن كان انحلالا، والظلم إن كان اغتصابا، والجهل إن كان استهتارا. ومن ثم فعلاج الأزمة لا ينبغي أن يقف عند حدود الطفل ورعايته فهي ليست أزمة الطفل، فلو عولجت أزمة ألف طفل لقيط وترك المصنع الذي ينتج هذا النوع من الأطفال مفتوحا، سيحل محل هذا الألف مائة ألف طفل لقيط، ليظل الطفل اللقيط أزمة تعكس واقعا مؤلما. فهل سننتبه جميعا حكاما ومحكومين لتلك الأزمة المهلكة، قبل أن يشملنا غضب الرحمن في ساعة عقاب قد تأكل الأخضر واليابس؟

المراجع

■ **المراجع العربية**

١. أبو غزال، معاوية. (٢٠٠٧). *نظريات التطور الإنساني وتطبيقاتها التربوية*. ط٢. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

٢. أحمد، علي زواري. (٢٠١٨). مجهول النسب وقضية الزواج (دراسة تحليلية فقهية من خلال الواقع والقانون والمقاصد الشرعية). ورقة مقدمة إلى الملتقى الدولي الثاني (المستجدات الفقهية في أحكام الأسرة)، معهد العلوم الإسلامية، جامعة الشهيد حمه لخضر– الوادي.

٣. إسماعيل، محمد عماد الدين. (١٩٨٦). الأطفال مرآة المجتمع (النمو النفسي الاجتماعي للطفل في سنواته التكوينية). عالم المعرفة. ٩٩. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٤. البراق، آمنه. (٢٠١١). حاجات البالغين من مجهولي النسب بعد خروجهم من المؤسسات الإيوائية للأيتام ودور الخدمة الاجتماعية في إشباعها، ورقة مقدمة إلى المؤتمر السنوي الأول لرعاية الأيتام، الجمعية الخيرية لرعاية الأيتام (إنسان)، الرياض.

٥. الجريدة الرسمية. (٢٠١٥، ٢١ يناير). العدد ٣ مكرر (ز). القاهرة: جمهورية مصر العربية.

٦. الجميلي، خيري خليل. (١٩٩٣). الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة والطفولة. الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث.

٧. الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء. (٢٠١٨). تقدير عدد السكان المصريين في الشياخات وفقا للنوع ومحل الإقامة. القاهرة: جمهورية مصر العربية.

٨. الخفاف، إيمان عباس. (٢٠١٠). الملف التدريبي الشامل للطفل غير العادي. عمان: دار المناهج للنشر والتوزيع.

٩. الزيادات، حورية محمد. (٢٠١٥). تقوية مهارات الاتصال وتحسين مفهوم الذات لدي اطفال قرى SOS. عمان: مركز الكتاب الأكاديمي.

١٠. السدحان، عبدالله بن ناصر. (٢٠٠٣). أطفال بلا أسر (الرعاية الاجتماعية لليتامى). الرياض: مكتبة العبيكان.

١١. الشاذلي، فتوح عبد الله. (٢٠٠٢). جرائم الاعتداء على الأشخاص والأموال. الإسكندرية: دار المطبوعات الجامعية.

١٢.الصومالي، أمل سليمان. (٢٠١٧). الأسر البديلة في مدينة جدة. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ١٤ (١).

١٣.العزب، هاني السيد. (٢٠١٧). دور الأسرة في إعداد القائد الصغير. القاهرة: المجموعة العربية للتدريب والنشر.

١٤.القمش، مصطفى نوري، والمعايطة، خليل عبدالرحمن. (٢٠٠٦). الاضطرابات السلوكية والانفعالية. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

١٥. بطرس، حافظ بطرس. (٢٠١٤). طرق تدريس الطلبة المضطربين سلوكيا وانفعاليا. ط٢. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.

١٦.بعيبع، نادية. (١٩٩٥). دراسة مقارنة لأثر تربية الملجأ وتربية الأسرة على النمو اللغوي لعينة من الأطفال الجزائريين. مجلة العلوم الاجتماعية والانسانية جامعة باتنة، ٢ (٣).

١٧.بنات، سهيله. (٢٠١٣). دليل الأسر الحاضنة لاحتضان آمن وصحي. عمان: المجلس الوطني لشئون الأسرة.

١٨.تيرنر، جوناثان. (١٩٩٩). بناء نظرية علم الاجتماع، (ترجمة محمد سعيد فرح). الإسكندرية: منشأة المعارف.

١٩. حسين، صفية الوناس. (٢٠١٦). مجهول النسب بين رحمة التشريع الإسلامي والتشريع *الوضعي*. ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام، قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية، جامعة الملك سعود.

٢٠.خليفة، صابر. (٢٠٠٩). مبادئ علم النفس. عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع.

٢١. راتر، مايكل. (١٩٨١). الحرمان من الأم (إعادة تقييم)، (ترجمة ممدوحة محمد سلامة). ط٢. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

٢٢.رطروط، فواز توفيق، والعطيات، خالد عبدالرحمن. (٢٠٠٧). الاثار الاجتماعية والنفسية المتوقعة لاحتضان الأطفال مجهولي النسب في الاسرة المنجبة للأطفال الشرعيين في الاردن ودور الاختصاصيين الاجتماعيين في مواجهتها. مجلة الطفولة العربية، (٣١).

٢٣.زهران، حامد عبدالسلام. (١٩٨٤). علم النفس الاجتماعي. ط٥. القاهرة: عالم الكتب.

٢٤. سابولسكي، روبرت م. (٢٠٠٢). لماذا لا يصاب حمار الوحش بقرحة المعدة (أثر الضغوط النفسية على الصحة العامة وكيف نتعامل معها)، (ترجمة شادن الباقي). الرياض: مكتبة العبيكان.

٢٥.سمارة،عزيز، والنمر، عصام، والحسن، هشام. (١٩٩٩). سيكولوجية الطفولة. ط٣. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦. عامر، طارق عبد الرؤوف محمد. (٢٠١٨). مفهوم وتقدير الذات. القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع.

٢٧.عبدالله، محمد بن محمود. (٢٠١٢). علم النفس الاجتماعي ودور الاسرة في التنشئة الاجتماعية. القاهرة: كنوز للنشر والتوزيع.

٢٨.عرابي، بلال. (٢٠٠٤). الأسس النفسية والاجتماعية للتكيف الاجتماعي عند الأيتام. مجلة الطفولة والتنمية،٤(١٥).

٢٩. عون، علي، وعلة، عيشة. (٢٠١٩). نظرية بياجيه للتنمية المعرفية (الآليات التنموية والتداعيات التعليمية). مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع جامعة جيجل، ٢ (٢).

٣٠.عيد، عادل عزت محمد. (٢٠١١). تقدير الاحتياجات للخدمات الاجتماعية للأيتام كمهنة تخطيطية (دراسة حالة مطبقة على الإدارة العامة لرعاية الأيتام بوزارة الشئون الاجتماعية). ورقة مقدمة إلى المؤتمر السنوي الأول لرعاية الأيتام، الجمعية الخيرية لرعاية الأيتام (إنسان)، الرياض.

٣١.غراب، هشام أحمد. (٢٠١٤). الصحة النفسية للطفل. بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٢.قاسم، أنسي محمد أحمد. (١٩٩٨). أطفال بلا أسر. الإسكندرية: مركز الإسكندرية للكتاب.

٣٣.قنطار، فايز. (١٩٩٢). الأمومة (نمو العلاقة بين الطفل والأم). عالم المعرفة، ١٦٦. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٣٤. كريب، إيان. (١٩٩٩). النظرية الاجتماعية (من بارسونز إلى هابرماس)، (ترجمة محمد حسين غلوم). عالم المعرفة. ٢٤٤. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

٣٥. مان، ميشيل. (١٩٩٤). موسوعة العلوم الاجتماعية. (ترجمة عادل مختار الهواري وسعد عبد العزيز مصلوح). الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.

٣٦. محمود، إبراهيم وجيه. (١٩٨١). المراهقة (خصائصها ومشكلاتها). القاهرة: دار المعارف.

٣٧.معلوف، أمين. (١٩٩٩). الهويات القاتلة (قراءات في الانتماء والعولمة)، (ترجمة نبيل محسن). دمشق: ورد للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٨.وطفة، علي أسعد، والرميضي، خالد. (٢٠٠٤). التربية قبل المدرسية (تصورات علمية وعقائد نقدية). الكويت: منشورات كلية التربية جامعة الكويت.

٣٩. يمينة، مدوري. (٢٠١٥). إشكالية التعلق لدى الطفل. مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية جامعة الشهيد حمة لخضر– الوادي، (١٣/ ١٤).

■ المراجع الأجنبية

40. Ainsworth, Mary D. Salter & Bowlby, John. (1991). An Ethological Approach to Personality Development. American Psychologist, 46 (4).

41. Bandura, Albert. (1999). A social cognitive theory of personality. In Pervin, L. A., & John, O. P. (Eds.). *Handbook of personality (Theory and research).* 2nd ed. New York: Guilford Publications. Biddle, B. J. (1986). Recent Developments in Role Theory. California: Annual Reviews Inc. Coplan, Robert J., & Rubin, Kenneth H. (2008). Social withdrawal (Definitions and perspectives). In A. LoCoco, K.H. Rubin, & C. Zappulla (Eds.). L'isolamento sociale durante l'infanzia, Social withdrawal in childhood. Milan: Unicopli.

42. Jallinoja, Riitta. (2012). Alternative family patterns; Their lot in family Sociology and in the life-worlds of ordinary people. London: Taylor & Francis Group.

43. LaFreniere, Peter. (2000). Emotional development (a biosocial perspective). California: Wadsworth/Thomson Learning.

44. Tourrette, Catherine & Guidetti, Michèle. (1994). Introduction à la psychologie du développement (Du bébé à l'adolescent). Paris: Psycho Sup, Dunod.

■ المراجع الإلكترونية

١. الملتقى الفقهي. (٢٠٠٣/٢/٩). هل تستطيع العقيم إرضاع يتيم تبنته؟ تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٥/٢٠ من https://feqhweb.com/vb/t2242.html

٢. حمدي، أسامة. (٢٠١٩/١/٨). المنسيون في الأرض: مجهولو النسب لقطاء اجتماعيا أيتام دينيا. تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٤/١ من

https://akhbarelyom.com/news/newdetails/2785611/1/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%86%D8%B3%D9%8A%D9%88%D9%86-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B1%D8%B6..-%D9%85%D8%AC%D9%87%D9%88%D9%84%D9%88-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D8%A8--%D9%84%D9%82%D8%B7%D8%A7%D8%A1--%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A%D9%8B%D8%A7--%D8%A3%D9%8A%D8%AA%D8%A7%D9%85--%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A%D9%8B%D8%A7

٣. موسوعة الفتاوي. (٢٠١٧/١٢/١٥). حكم الوصية للطفل المكفول. تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٦/٩ من

http://www.fatawa.com/view/15155

٤. مجد دريباتي. (٢٠١٩/١١/٣٠). متى وكيف أخبر الطفل عن حقيقة التبني وكيفية التعامل مع الطفل المتبنى. تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٥/٢٧ من

https://www.hellooha.com/articles/2132-%D9%85%D8%AA%D9%89-%D9%88%D9%83%D9%8A%D9%81-%D8%A3%D8%AE%D8%A8%D8%B1-

%D8%A7%D9%84%D8%B7%D9%81%D9%84-%D8%B9%D9%86-%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A8%D9%86%D9%8A-%D9%88%D9%83%D9%8A%D9%81%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B9%D8%A7%D9%85%D9%84-%D9%85%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D9%81%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%A8%D9%86%D9%89

٥. وزارة التضامن الاجتماعي. نظام الأسر البديلة (تفاصيل الخدمة). تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٤/٢٠من

https://www.moss.gov.eg/ar-eg/Pages/sector-service-detail.aspx?sid=51

٦. وزارة التضامن الاجتماعي. (٢٠١٨/١٢/١١). "والى"رعاية الطفل داخل أسرة أفضل له من كافة النواحي الاجتماعية والصحية والنفسية (تفاصيل الخبر). تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٤/٢٦من

https://www.moss.gov.eg/sites/mosa/ar-eg/Pages/news-details.aspx?nid=648

٧. ويكيبيديا الموسوعة الحرة. سمنود مدينة في مصر. تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٤/٣٠ من

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B3%D9%85%D9%86%D9%88%D8%AF

٨. ويكيبيديا الموسوعة الحرة. نظرية التبادل الاجتماعي. تم الاسترجاع في ٢٠٢٠/٤/١٥ من

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D

9%84_%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AC%D8%AA%D9%85%D8%A7%D8%B9%D9%8A

Dabbeni, Astrid. (2008). Talking to Your Kids About Adoption: 11 Tips. Adoption Mosaic, Portland. Retrieved on May 24, 2020, from http://www.adoptionmosaic.org/talking-to-your-kids-about-adoption-11-tips/

The Free Encyclopedia. Identity: Social Science. Retrieved on June 29, https://en.wikipedia.org/wiki/Identity_(social_science)2020, from